كتاب
الجديد

صوت مصر

مصر والمصريون
مَن أحبوا مصر
مصر والأديان
أزمة الإنسان المصري

عباس محمود العقاد • د. رشاد رشدي
د. نعمات أحمد فؤاد • سيد الباز

وزارة الثقافة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الادارة : د· السيد محمود الشنيطى

كتاب الجديد : صوت مصر

سلسلة شهرية تصدر عن

مجلة الجديد

رئيس التحرير : د· رشاد رشدى

- مصر والمصريون
- من أحبّوا مصرُ
- مصـــرُ والأدَيان
- أزمة الإنسان المصرى

عباس محمود العقاد • د. رشاد رشدى
د. نعمات أحمد فؤاد • سيد البان

من أجل :
المتأملة ونقد ...
أن تنمو الجذور للإنسان المصري بكيانه ..
من أجل وعي بالماضي و في الحاضر
ومجتمعه لتتحرر من سجن الذات
من أجل مصر
من أجل

عباس محمود العقاد

مصر والمصريون

الأمة المصرية ليست أمة بداوة تتوثب الى الحـــرب لأنها باب الرزق وطريق السلامة من الجار المعدى او الجار المخيف ، ولكنها أمة حضـــارة مستقرة ومعيشة منتظمة تلجأ الى الحروب حين تلجأ اليها لأنهـا لا محيص عنها ونكبة لا تستهين بها الا اتقاء لنكبة أكبر منها ، وأصعب عاقبة من عاقبتها ·

وهي لا تطيع حكامها كما يطيع البدوى زعيمه أو كما يطيع العسكرى قائده : الى الحرب يا رجال فاذا الرجال كلهم على أهبة القتال ·

وانما هي أمة توارثت العقائد والمأثورات جيلا بعـــد جيل وأصبح لها من بعض تلك العقائد تراث تصونه فوق صيانة المصلحة وتغار عليه أشد من غيرتها على المال والثروة ثم هي أمة ذات أرزاق مطردة ومعيشة مستقلة لا يعنيها

صلاح الحاكم كما يعنيها صلاح الأرض السماء والعوارض والأجواء ، فاذا دعاها الحاكم الى حرب لا تعنيها فذلك شأنه وليس بشأنها وتلك خسارته وليست بخسارتها ؛ أما اذا اصيبت في عقائدها وموروثاتها أو ظهر لها الجور على أرزاقها ومرافقها فهناك يستعصى قيادتها كأشد ما يستعصى قياد أمة ، وهناك تصمد للحرب كما يصمد لها المقاتل المجبول عليها ، ولسعد رحمه الله كلمة بليغة في هذا المعنى قالها للانجليز فلمست من نفوس أذكيائهم جانب الصرامة وجانب الفكاهة في لمحة واحدة ، وجاءت في موقعها وأوانها لأنها قيلت على آثار الحرب العظمى أيام كان تحضير الأرواح شغلا شاغلا لكل من فقد عزيزا أو شك في دين ، قال رحمة الله : « اننا لو استحضرنا اليوم روح يوليوس قيصر وسألناه عن الأمتين اللتين جشمتاه أكبر العناء وحرمتا عليه الراحة لقال لنا أنهما هما المصريون والانجليز !

وتلك كلمة حق من كلماته التى تقرب البعيد وتجمع الأطراف المتفرقات في حروف معدودات ٠

ولا شك في أن هذا الخلق الذى امتزج بالفطرة المصرية هو باعث الحاكمين جميعا الى مجاملة الأمة في عقائدها والحذر من المساس بموروثاتها ومألوفاتها ، فمن لم يفطن من الحاكمين لهذه السياسة الرشيدة لم يعرف الراحة معها في سياسة أخرى ، ولم يأمن أن يزول حكمه ويفسد الأمر عليه فسادا لا صلاح بعده ، وكثيرا ما انتهت

المجاملة بالحاكمين الى التدين بالدين المصرى والتخلق بالأخلاق المصرية ؛ اذا كانوا من الغرباء ·

وقد حارب المصريون فى جيوشهم المنظمة ولقوا فى حروبهم أعداء ذوى بأس كالترك والعرب والروس ، فكانوا مثلا فى الشجاعة والنظام ولم يقل عدو قتال ولا عز وجنس أنهم نكلوا عن مواقف الثبات والاقدام

ولو أحصيت الثورات في تاريخ مصر القريب لما كانت فى عددها دون ثورات الامم التى اشتهرت بالتمرد ولم تشتهر بالاستسلام فقد ثار المصريون على الفرنسيين وثاروا على الترك والمتتركين وثاروا على الانجليز فى نحو قرن واحد ، وكان للعقيدة والموروثات فى معظم هذه الثورات دخل أظهر من دخل المصلحة والمرافق القومية أو الفردية ·

* * *

وقدم العهد بالمدنية يتلخص فى حب الأسرة واستقرار النظام البيتى على أساس بيعد القرار ·

فنحن لا نستطيع أن نفهم كيف يكون المصري محافظا شديدا فى المحافظة ثائرا متأهبا — للتمرد — الا اذا فهمنا حبه للأسرة وحبه من أجل ذلك للموروثات والتقاليد ، فهو محافظ كما تحافظ جميع الاسرات على تراثها وهو من أجل المحافظة على التراث مستعد للثورة أبدا لصيانة موروثاته وتقاليده · وقد يبدو غير معقول فى ثورته وهياجه

لأن العهد بالناس أن يستغربوا الثورة من المحافظين المقلدين ويزيدهم استغرابا لها أن لا يجدوا تفسيرا لها من خوف الضرر على المصالح والمنافع . فيقولون مدهوشين : أمثل ذلك الشعب الوادع المستقر يثور هذه الثورة لمثل هذا الضرر اليسير أو لغير ضرر على الاطلاق ؟ والواقع أن الذى يثور هذه الثورة غالبا هو المحافظ المغرق فى المحافظة ؛ لأنه لفرط محافظته ينسى المصلحة فى سبيل العادات .

ولطول الكبت أثر فى هذا الجنوح الى التمرد كلما سنحت الفرصة التى تنطلق فيها الغرائز وتخرج فيهـا على على القيود .

فالمصرى يستمتع بهذه الفرصة ويسترسل فيها الى أمد بعيد : لأن كبت العادات ـ وكبت الخضوع الأعمى أمران لا يطاقان الى زمن طويل . فاذا سنحت المناسبة فقد يكون الكبت الذى تعانيه النفس من العادات الطويلة سببا من أسباب التمرد والشذوذ ، وتلك نقيضة فى النفس الانسانية تظهر أبدا مع كل افراط وكل استغراق .

* * *

ان المصرى لينسى كل شيء الا وشائج الرحم وآداب الأسرة . وقد يسف المجرم اسفاف الخبث والنذالة أو يسف المسكين اسفاف الضعة والمتربة ، لكنه لا يزال فى صميم نفسه ذلك ـ الخلف المنحدر من أجيال وراء أجيال

عاشت جميعا فى ظل الأسرة ، ودانت جميعا بآداب العرف الاجتماعى والعلاقات البيتية والأخلاق المصطلح عليهـــا .

راقبت هذا الخلق فى نفوس العلية والسفلة وفى نفوس الشرفاء المجرمين فوجدتـــه على قـــرار مكين فى جميع هؤلاء .

وأردت ـ وأنا فى السجن ـ أن لا يفوتنى سبر هذا الخلق فى طبائع اللصوص والفتاك والمخاتلين والانذال ومدمنى الخمر والسموم فأذاهم كلهم « يبيتون » فى طوية النفس ؛ يتمردون على القانون والفضائل والعظات، ثم يقف تمردهم عند حدود العلاقات البيتية ، والعواطف التى تأصلت بين الأعمار والأسنان على حكم الأبوة والبنوة والاخاء والقرابة فى الادهار بعد الأدهار فقلمــــا يخطو التمرد خطوة وراء تلك الحدود .

رأيت مرة طفلا صغيرا من الأطفال الذين يودعونهم سجن مصر ريثما ينقلونهم الى سجن الاحداث فى الجيزة وكان هذا الطفل مع أقران فى سنه ينتظرون الترحيـــل فى فناء السجن المعرض لأنظار الرؤساء والسجانين فمر به سجين من العائدين فى جريمة السرقة ، فرفع له الطفل رأسه وناداه فى لهجة المسكنة الطبيعية التى يشعر بها الصغير فى غيبة أهله « جوعان » !

فتمهل اللص العائد وقال له : وماذا أصنع لك يا بنى ؟ وانصرف آسفا فظننته لا يعود ولا يفكر بعـــد

ذلك في الطفل المستغيث ، ولكنه ما لبث أن عاد بعد دقائق ومعه رغيف سرقه من المخبز فقسمه نصفين وأعطى الطفل نصفه واستبقى لنفسه النصـــف الآخر ؛ ولو ضبطوه وهو يسرق الخبز لما نجا من الجلد الاليم أو من السجن على انفراد .

ورأيت رجلا شيخا نازلا من درج المستشفى وهو لا يقوى على الحركة ولا يجد الممرض الموكل به من يقوى على حمله ، وكان على مقربة منه يافع لم يتجاوزالسادسة عشر لا يدل مرآة على ضلاعه ولا على صحة سليمة ، فشق عليه أن يبصر الشيخ المريض يتعثر فى خطاه ويئن من وجهه وتقدم اليه فحمله ومشى به على جهد شـــديد حتى أعياه حمله ، دون أن يكلفه الممرض ذلك ـ أو يخطر له أنه قادر على هذا العبء الفادح ليافع مثله .

وتلاحى شيخ فان وفتى عارم مشهور بالشر والعربدة فى السجن وفى الحى الذى يعيش فيه ، فسبه الشيخ سبا لا يطيقه من أنداده ولا يأمن من يسبه به أن يستهدف لضربة قاسية فما صنع الفتى المسبوب الا أن بدأ عليه الدهش والتردد لحظة ثم هز رأسه وقال لمن حوله «أنظروا الى الرجل الشائب يعيب ولا يخجل ؛ وقال للرجـــل الشائب : لو غيرك قالها قتلته ولكن ماذا عسى أن أعمل لك وانت أكبر من أبى ؟ .

ومن المشاهدات المألوفة فى طرقات مصر أن ترى

بائعا فقيرا يصطحب ولده الصغير ليأنس بصحبته ويخفف أعباء السعى والكدح برؤيته ومناغاته .

ومن سائق مركبات النقل من لا يخرج لشـــغله الا ومعه وليده يجلسه فى مكان القيادة ويتعجل الفرح بنموه وقيامه مقام الرجال فى أشغال معاشه ، واذكر اننى رأيت فى بعض المنازل التى سكنتها طفلا لا يتجاوز الخامسة يقيم عند أبيه الخادم فى المنزل بمعزل عن أمه التى تقيم فى بلدتها مغضبة من زوجها . فرثيت لطفل فى هـــذه السن يفارق أمه ويحرم حنان الأمومة وهو فى أشـــد الحاجة اليه ، ولكنى لم ألبث أن رأيته موضع عناية الخدم والباعة فى الشارع كله : يلاطفه كل خادم أو بائع يعبر الطريق ويسألون عنه ليضاحكوه ويلاعبوه حتى أصبح « مدلل » الشارع وألعوبته الحية وحتى ألف المقام وطابت له هذه الغربة : وطفق بعض أصحابه الكبار يضـايقونه بذكر البلد والسفر اليه فينفر ايما نفور .

وقد أنكر الغربيون ما أنكروا من مقام المرأة فى الحياة الشرقية وقاسوا كلامهم عنها بمقياس الحقـــوق المدنية أو الحقوق السياسية التى كثرت حولها الجعجعة بينهم على غير طائل ولكن الذى نعرفه نحن ويعرفه كل مطلع على أحوال البيئة المصرية أن مقام الأم فيها مكلوء الجانب مرعى المكانة فى البيوت كافة والبيئات قاطبة ، وأن الأم المصرية تنعم بين أبنائها وآلها بمنزلة يغبطهـــا عليها الأمهات فى بلدان المغرب والمشرق .

فالأسرة عظيمة الشأن فى آداب المصريين من اقدم عصور التاريخ ولن يتجرد المصرى من عواطف الأرحام بين أبوة وأمومة وبنوة وقرابة وأصرة دانية أو قاصية ، وذلك هو قوام العرف الاجتماعى فى أخلاقه وعلاقاته وهو أيضا قوام « المحافظة المصرية » التى تحب الالفة وتعرض عن البدع والخوارق .

والوصايا باتخاذ الاسرة معروفة فى الأدب المصرى منذ آلاف السنين ففى وصايا (فتاح حوتب) التى كتبت قبل أكثر من سنة وأربعين قرنا يقول الوزير لتلميذه « اذا كنت رجلا ذا منزلة فاتخذ لك منزلا وأحبب قرينتك الحب الجميل . وأطعمها واكسها وطيب أصالها ؛ وأدخل السرور على قلبها طول حياتها .

ولم تنس الوصية بتوقير الاسرة وصلة الارحام بعد ذلك كلما كتبت الوصايا فى العهد القديم ففى نسخه من وصية « عانى » محفوظة فى مخطوطات الأسرة الثانية والعشرين يقول الحكيم « اتخذ لك زوجة فى شبابك لتنجب لك ولدا تربيه وانت فى صباك وتعيش حتى تراه فى عداد الرجال وما أسعد الرجل الذى له عشيرة كبيرة ! ان الناس يوقرونه من أجل بنيه » .

وفى هذه الوصايا يقول الحكيم ! « ضاعف لأمك خبزها وأحملها كما حملتك لقد أثقلتها وما نبذتك ، وظلت تحملك حول عنقها بعد ميلادك وظل ثديها ثلاث سنوات

فى فمك ، ولم تأنف من تنظيفك ولم تقل قط : ماذا أصنع بهذا ؟ وأرسلتك الى المدرسة تتعلم الكتابة ووقفت لك — بالخبز والشراب كل يوم تنتظرك . وأذكر اذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف ولدتك أمك وكيف ربتك وتهدئك بكل ما هدها من وسيلة ؛ عسى أن لا تصيبك بضرر ولا ترفع يديها الى الله بالدعاء عليك ، ولا يستمع الله منها الى شكاية » .

فهذه الرحمة « البيتية » قديمة لم تتغير فى الزمن الحديث ، ومن عظم الرأفة بالبنين أن يمتد زمن الرضاع لهم الى ثلاث سنوات كما يفهم من هذه الوصية ، وأن الرأفة فى تلك الاجيال السحيقة لغريبة ولو كانت رأفة الآباء بالبنين .

ومن الاخلاق التى تلازم حب الاسرة ومتانة الوشائج البيتية غيرة الزوجة وصيانة العرض واستهجان التفريط فيه لبلوغ مأرب واتقاء سطوة ، فيروض المصرى نفسه على الضنك والرهبة ولا يروض نفسه على بيع العرض وابتذال البيت وينبغى هناك التفريق بين عرض وعرض والتمييز بين غيرة وغيرة فان البدوى مثلا ليأبى أن يبذل عرضه ويثور على من ينتهك حرمه ولكنه يأبى ذلك كما يأبى أن يداس عليه مرعى الابل ومورد الماء ، ويغضب للزوجة وكأنه يغضب فى منافرة أو مصاولة ، لأن اعتداء المغير على زوجته هو عنده بمثابة هزيمة فى حرب أو

نكوص في مجال صراع · أما المصري فغيرته على عرضه
من نوع آخر ولعلة أخرى : اذ هو يغار على الزوجـــة
اعتزازا بصداقة متينة وأرحام أمينة ، وضنا بملاذا الفـــة
وسكينة ومأوى سعادة وطمانينة وانه ليغضب للزوجة
وكأنه يغضب لقرابة تقطع أو محراب يهان وهذا هـــو
الفرق بين الغيرة التي منشؤها أدب الاسرة والغيرة التي
منشؤها أدب القتال ·



فالمصرى اجتماعي من ناحية الاسرة وعراقة المعيشة
الحضرية أو اجتماعي من ناحية انتظام العادات والعلاقات
منذ أجيال مديدة على نظام الاسر والبيت ، وهذا هـــو
أقوى ما يربطه بالمجتمع أو يربطه بالأمة والحياة القومية
وهو ارتباط أقوى في نفسه جدا من ارتبـــاط النظـــام
السياسى والمراسم الحكومية فلم تكن الحكومة في تلك
الازمان الطويلة لتمتزج بنفســـه قط امتزاج الالفـــة
والطواعية والمعاملة المشكورة بل ربما كان صدوده عن
الحكومة مما ضاعف اعتماده على الأسرة وحصـــر عواطف
الانسانية في علاقاته البيتية ، لأنها ملجأ خفيض ومهرب
أمين من القســـوة والمظـــالم ؛ وغـــاية ما يخـامره من
أمر الحكومة انها شيء يدارى ما اســـتطاع له المداراة
ويستفاد من سطوته وجاهه ما تيسرت الفائدة ، ولا بأس
بارضائها بالهدايا والمجاملات في غير حفيظة ولا استكراه

ولا عجب في هذا الشعور المهم في زمن كان الناس فيه يعبدون الهة الشر ويتزلفون اليها بالصلوات والقرابين !

فعلاقته بالحكومة على الأغلب الأعم هي علاقة عداوة مريبة أو مهادنة محتملة ، لم تبلغ أن تكون علاقة ود يحرص عليه أو ضمان يحميه الا في الندرة التي لا يقاس عليها . ومن ثم كان محافظا ومتحفزا للتغيير في وقت واحد أو كان محافظا في مسلكه الذي يدور على أصول الاسرة وعلاقات الرحم متمردا في مسلكه من ناحية الشئون السياسية والمسائل الحكومية ومتى جد عليه جديد الاصلاح فلن يفلح عنده ولن يظفر منه بالترحيب والموافقة الا ساعة يمتزج بنظام البيت والاسرةويتسرب الى حياته من باب عواطف الارحام ومناظرات المنازل والا فلا أمل لاصلاح في توفيق .

لكي لا ينبغي أن يفهم من هذا أن المصرى ضعيف الاهتمام بالسياسة أو أنه مصروف عن تتبعها واستطلاع أخبارها ومجرياتها ؛ أو أنه قليل البصر بمداخلها ومخارجها . فان الواقع قد كان على خلاف ذلك بل على نقيضه في عصور كثيرة ، والمشهور عن المصريين أنهم من أشد الامم شغفا بأحاديث الدول وعناية باستطلاع أحوال الحكومات ، وقد يسرى بينهم شعور ملهم بدخائل الاغراض الخفية واتجاه الخير واتجاه الشر في الخصومات السياسية لما تعاقب عليهم من التجارب وتوالى على اسماعهم من أحاديث

الصاعدين والهابطين والمقبلين والمدبرين فاذ قيل انهم اجتماعيين من قبل الاسرة وليسوا باجتماعيين من قبل الحكومة فليس معنى ذلك أنهم لا يشتغلون بالسياسة ولا يأبهون لحديثها ، وانما معناه أن اشتغالهم بها فى العصور القديمة لم يكن يتعدى جانب التحرى والاستطلاع الى جانب الخلق والتكوين .

واذا بدا على المصرى أحيانا انه ينقاد فى السياسة فليس معنى ذلك انه لا يفهم بل معناه انه ينقاد لأن الطاعة أشبه بنظام الاسرة من جهة ، ولأن أزمنة الركود الطويلة من جهة أخرى ليس من شأنها أن تبعث روح الابتداء والاقتحام فالبقاء فى الصفوف أيسر عنده من التفرد باعتساف الطريق ، وهو حتى فى ثورته يريد أن يرى الصفوف حوله ولا يريد أن يعتسف الطريق وحده ؛ وكلما غلبت فيه نزعة الابتداء والاقتحام بغلبة الحرية والاستقلال — قلت فيه عادة الانقياد الاجتماعى أو قل فيه النفور من المخاطر والانفراد .

ومما لا شك فيه أن الحضارة المصرية كانت منذ عهد عهيد حضارتين متجاورتين : أحدهما لأصحاب السيادة والاخرى للمسودين الخاضعين ، وقد زعم بعض المؤرخين ان السادة والمسودين كانا جنسين مختلفين وعنصرين مستقلين ، وحديثا رأينا أن ذوى السيادة المصريين كانوا من بلاد شتى وأجناس عديدة ، بعضهم ترك وبعضهم

عرب وبعضهم غرباء من صنائع الفريقين وبعضهم مصريون من أصحاب النباهة واليسار ، ويجب أن يحسب لذلك حسابه فى اختلاف وتباين الميول والملكات التى آن يتم مع الزمن امتزاج هذه العناصر كما امتزجت عناصر غيرها ، فى كل فترة من فترات التاريخ ٠

والذهن المصرى العريق ذهن عملى واقعى سهل المنطق واضح فى نظرته الى الدنيا وحكمه على الأشياء والنـاس شأنه فى ذلك شأن أبناء الأمم الزراعية عامة ٠

فالأرض والغلة والنيل والفيضان كلها من الوقائع المحسوسة المطردة فى قياس العقل بغير توثب فى خيال ولا جماح من خاطر ، وهى تتصل بعالم الغيب اتصالا بسيطا لا يحوج صاحبه الى التخيل والتغلغل ، وانمـــا يحوجه الى التدين والايمان والانتظار فى شىء من التسليم ثم يتوطد الايمان والتسليم مع توطيد الكهـــانة وتوطد الموروثات والعادات ، فيسلس ما جمع ويستقر ما اضطرب ويجرى على نمط هادىء من التفكير والنظر المحسوس ولهذا خلق المصرى القديم عالمه السماوى فخلقه عالما أرضـــيا آخر على غرار هذا العالم الأرضى المشاهد بالعيان يأكل فيه الانسان ويشرب ويستعد له بزاد من طعام هذه الدنيـا وبمتاع وآنيه من متاعها وآنيتها ويحتفظ له بجسده من العطب لأنه سيعيش هناك كما عاش هنا ، ويكون بعـــد الموت كما كان فى الحياة ٠

ولهدوء العقيدة المصرية واستوائها وحضارة الأمـــة التي تعتقدها وعذوبة طبعها وايناس عشرتها قد ســـلم الدين في مصر من لوثة العصبية العمياء وقسوة الهمجية الرعناء وسلم تاريخ مصر كله من المذابح الطائفية والضغائن الدينية الا أن يتسلل اليها ذلك من طائفة غريبة أو نحلة دخيلة ؛ وقد سلم الدين المصرى من لوثة الضحايا بالبشرية كما سلم من لوثة التعصب والضغينة فلم تؤثر عن المصريين في أقدم عهودهم شعائر التضحية بالآدميين ومناسك التعطش الى الدماء . وكل ما حدث من التضحية الآدمية في عهود التاريخ القديم فانما هو الفتك ببعض الاسرى قبل أن تفرض حماية الاسرى فى آداب الحروب ، ولا يحسب هـــذا من الشعائر أو المناسك التى يفرضها الدين ويجرى عليهـــا عرف المعابد والكهان .

* * *

والمصرى عملى فى حياته كما هو عملى فى النظر الى الحياة ، يخطىء كمة من يقرفه بالكسل ويجهله كل الجهل من يعزو اليه الركود ويغض الحركة نعم أنه يألف أرضه ويسكن الى تربة وطنه ولا يخف الى هجرتها كما يخف الى الهجرة سكان البلاد التى لا صـــلة فيها بين المرء وتربة وطنه ومعاهد بلاده الا أن عذره فى ذلك هو عذر جميع الأمم التى تعيش من الزراعة وتتصل العلاقة بينها وبين أرضها ونباتها ؛ فأما أنه يعمل ويصبر على العمل فتلك

خصلة مشهودة يراها فيه رأى العين كل من شاهده. الفلاح ينهض من الفجر للحرث والسقي والبذر والجنى فلا يفرغ من عمله قبل الغروب ، الا أن تكون غفـــوة القيلولة فى حمارة القيظ ، وهو يفعل هذا ويدمنه فى مواقيته ولو كان هو مالك أرضـــه وزارعهـــا بلا تكليف من ســـيد أو مستأجر .

ولقد صبر المصرى على العمل والمشقة . ولقد عودته المواسم الزراعية أن ينتظرها كل شيء فى أوانه ، ويربط كل أمل بأجله ؛ فهو من ثم صبور طويل البال ، فيه اثارة من « القدرية » وانتظار الغيب وقلة استعجال المقادير . وله فى هذا المعنى أمثال وحكم يتفق فيها عصر الفراعنة وعصر البخار والكهرباء ، أو يتفق فيها عصر الاناة وعصر السرعة والوثوب .

وشعار المصرى فى الخصومة : « اصبر على جار السوء يرحل أو تجىء له داهية » ... فهو صبور مسالم لا يعجل بالشر ولا يتفرز الى الانتقام بيد أنه يصبر لينتقم ويصبر على المكايدة والنكاية كما يصبر ليرى عدوه راحلا عنه أو مصابا بداهية على يد غيره ! ومن الصبر وكتمان الغيظ ذلك اللدد الذى لا ينسى الخصومة ولا يقنع فى الثأر بما دون الاصماء والايجاع ، وشأن الأسرة فى خصوماته كشأنها فى جميع عاداته . فان عداوات الأسرة ومنافساتها لهى التى تدفع به الى القتل وحرق الزرع وتسميم الماشية دون

العداوات التى تغلب عليها الصبغة الفردية أو الصبغة العامة فيندر أن يقع إنتقام فاجع فى الريف خاصة الا لحت فيه أن « ابن فلان » يثأر من « ابن فلان » قلما يحدث ان هذا الفرد على حدة يثأر من ذلك الفرد على حدة ، بغير نظر الى القرابات والمنافسات .

وهنا أيضا مجال تتبين منه الفرق بين تأصل الأخلاق الاجتماعية من ناحية الأسرة وتأصل الأخلاق الاجتماعية من ناحية النظام السياسى فى نفس المصريين ، فالمصرى لا يحجم عن خطر فى سبيل الخصومات الأهلية من بذل المال الى بذل الحياة فاذا احتمل من الحكومة ما ليس يحتمله من غيرها فليس انصافا لا تمحيصا أن ينسب ذلك الجبن والفتور ، وانما الفرق الصحيح أو الفرق الأهم أنه لا يشعر بالحكومة فى نظره أو نظر منافسيه كما يعيبه الخضوع لخصم بينه أو أقربائه ، وما لم يتساو الأمران عنده لا يحق للمنصف أن ينسب احتماله الى جبن أو فتور .

* * *

وقد اشتهرت « النكتة المصرية » بين جيران مصر وعرف المصريون « بالتنكيت » فى الزمن القديم كما عرفوا به فى الزمن الحديث ، حتى قيل ان الرومان حرموا عليهم المحاماه فى محاكم الاسكندرية ، لأنهم كانوا يغشون من

هيبة القضاء الرومانى بالمزاح والدعابة ، فى أثناء الدفاع وشرح القضايا .

وليست اللباقة وبراعة الحديث ولطف النادرة وحسن المؤانسة بالخصال المستغربة فى أمة قديسة الحضارة عريقة الآداب منصرفة فى أكثر الأحيان الى السلم والمعيشة الوادعة وأخلق بهذه الخصال وحدها أن تكون ينبوعا فياضا للنكتة ولباقة التعبير فى الجد والهزل على السواء ، فاذا أضيف اليها عبر الأيام ونقائص التاريخ وأطوار الحوادث المتعاقبة ففى ذلك مدد للفكاهة لا ينضب ؛ واغراء بالترويح عن النفس لا يزال يهديها الى التبسيط والمزاح .

لذلك كان المصرى مزاحا بحكم لباقته المستفادة من قدم الحضارة ومزاحا بحكم الحوادث التى تلجئه الى التخفيف وقلة الاكتراث ، ومزاحه فى جميع الأحوال متسم بالصبغة المصرية مطبوع بطابع اقليمه وتاريخه ، بحيث ينم على خصائصه الفكرية والنفسية ويميزه نمطا وحده قليل النظائر بين أنماط الفكاهة والتنكيت .

والنكتة كما يعلم القراء اما نكتة دعابة أو نكتة تهكم وفى كلتا الحالتين تتميز للمصرى دعابة تشبهه وتهكم يناسب طبيعته وتاريخ بلاده .

فأما الدعابة فهى تقوم فى الغالب على ادراك النقائص

وملاحظة المفارقات ويختلف فيها الناس باختلافهم فى التفكير والشعور والنظرة الى الحياة ٠

فالعمليون الحسيون يدركون النقائص بين الأشكال والصور ويوجهون التفاتهم الى المشابهات اللفظية والتجنيات المعنوية التى لا تمعن فى التعمق ولا فى التفتيش الخفى عن الاسرار ٠

والخياليين المتعمقون على خلاف ذلك ينصرفون عن الاشكال والصور الى ما وراءها من نقائص الأسرار ودخائل الاحساس والعاطفة الخفية فيقل فى نكاتهم جناس اللفظ والالتفات الي المحسوسات ويكثر فيه جناس البداءة البعيدة والالتفات الى الأسرار العويصة ٠

من البديهية أن النكتة المصرية لن تكون فى جملتها الا نكتة محسوسات لا تتمادى فى الخيال ولا تتعلق بالغوامض ، لا لأن أصحابها قوم عمليون حسيون يقيسون الأمور بمقياس الوقائع والتجارب العيانية ٠

أما التهكم فأنت خليق ان تعرف أخلاق الأمة بحذافيرها من عرفانك بأسلوبها فى تهكمها وسخريتها ٠

فانك اذا عرفت ما تسخر به الأمة عرفت ما تجله وتحوطه بالهيبة والكرامة وتهكم المصريين كاله مصبوب على الجلافة والغفلة ، فمثال الرجل الكامل عندهم هو اللبق اليقظ الذى يتجنب الخشونة ويفطن للخداع

والمراوغة فلا تجوز عليه حيلة وأى شيء هو أدنى الى الطبيعة المصرية والأشبه بالتاريخ المصرى من التهكم على هـــذا الأسلوب !

فالجـلافة فى القـول أو فى التصرف هى أول شيء يضحك منه أبناء أمة قديمة الحضارة مصقولة الحاشية تأنقت فى الكلام حتى جعلته فنا كثير اللحون والاشارات ، وتأنقت فى الكياسة وآداب المعاملة والمعاشرة حتى جعلتها فنا كثير المراسم والأصول ، لا يتقنه الا من نشأوا عليه بالتربية والمرانة .

أما الغفلة فالمصرى يزدريها ويزدرى من يقع فيها ؛ لأن الحـوادث والمظـالم قد أحوجته الى الحيلة وحســن التخلص ، واضطرته الى التصرف بين الناس على حـــذر وكياسة توافق مصلحته وتليق بأدبه وجاءه المرتزقة من أبناء الأمم المشتغلة بالتجارة وترويج السلع الغربية فأحوجه مرة أخرى الى الحيطة واليقظة واجتناب الغفلة لأنهم كانوا جميعا قناص كسب لا يتورعون عن خطفه واختلاسه بكل وسيلة ميسورة ، ولا يزالون محميين مرعيين وهو بينهم فريســـة مباحة الذمـــار لا تأوى الى حمياه وتعـــدل على رعاية .

وقد زار مصر رجل انجليزى هـو روبرت كرزون صاحب كتاب « الأديرة والمعابد » فى شرق بحر الروم قبل قرن على التقريب ؛ فوصف أخلاق بعض الباعة المخادعين

الذين ابتلي بهم المصريون فى ذلك الحين ، قال انهم على الجملة أنذال يتفاخرون بالختل والاحتيال ، وأن هناك بيانا صحيحا لنصيب كل طائفة من القدرة على الغش والسرقة يدل عليه هذا التقدير « فلا بد من الأربعة أتراك لخداع أفرنجي واحد ، ولا بد من افرنجيين متعاونين لخداع اغريقي واحد ، ولا بد من اغريقيين مشتركين لخداع يهودى واحد ولا بد من ستة يهود معا لخداع أرمنى واحد » ٠

وهؤلاء كلهم كانوا فى العصور الوسطى وما بعدها مسلطين على المصرى الأعزل ، يزيفون له البضائع القريبة ويخدعونه عن قيمتها وعن درجتها وعن ثمنها وعن حاجته اليها ، بعد أن قضى العصور وراء العصور محتاجا الى الحيلة والكياسة لاتقاء ظلم الظالمين وغصب الغاصبين ودسيسة الدساسين ٠ ليس بعجب بعد ذلك كله أن يزدرى الغفلة وان يجعلها هدفا لتهكمه وغرضا « لقوافيه» وقفشاته ٠

ولقد يكون ولعه بالكتابة ــ بل افراطه فى حب التورية والجناسات اللفظية ناجما من هذه الحاجة الى الكياسة فى التعبير واللباقة فى ابلاغ الاشارات والتلميحات الى المعنيين بها من السامعين ٠

ولم يظهر حب اليقظة والزراية بالغفلة فى النكتة المصرية وحدها ، بل ظهر فى جميع الآثار الفنية التى تعبر عن معاملات الشعب ومعايشاته فامتلأت القصص والنوادر

بكلمة « الملاعب والمغارز ؟ وازدحمت بأفانين الشطار والعجائز الماكرات في نصب الفخاخ والاشراك كما ازدحمت بأفانين الأذكياء والظرفاء في اجتناب ما ينصبه من فخاخهم واشراكهم . فكان مدار القصة والنكتة معا على الغفلة واليقظة أو على الجلافة واللباقة ، وكان في هذه وتلك مجال واسع للانتقام من الحكام الذين يصولون بالسلاح والبأس وهم فيما وراء ذلك أجلاف مغفلون !

ويخيل الينا أن النكتة المصرية والتنسك المصرى اخوان توأمان أو صنمان يتجاوزان ؛ النفس المصرية التى أرهفتها الحضارة ودمثتها المؤانسة وصقلتها المعيشة المنظمة لن تستغنى عن ملاذ تسكن اليه كلما اشتد عليها الجور وضاقت بها مفاسد الحياة العامة ، فاذا غلبت على المصرى محبة المتعة والنعمة الرخيمة فملاذه النكتة والفكاهة ، يروح بها عن نفسه ويفرغ حسبه ضميره . واذا غلبت عليه الصرامة وقلة الصبر على الفساد جنح الى النسك والزهادة عمد الرهبانية أو الدروشة كما فعل مرات كثيرات فى عهود الديانتين المسيحية والاسلامية أما اذا سنحت فرصة التمرد والانتقاض فالثورة ملاذا يأباه صاحب المتعة ولأصحاب الصرامة .

وقد رجحنا أن النسك المصرى والمزاح المصرى اخوان توأمان لأنهما يدوران معا على الاستخفاف بسوء الحال واليأس من صلاح الأمور وانما يستخف أحدهما بحاله

فيهجره ويعزف عنه ، ويستخف به الآخر فيأخذه على هينة ويسخر به لكيلا يجهد نفسه بهجره وكفاحه فليس المصرى بناسك على طراز ذلك النسك اليابس العقيم الذى يجهل الحياة ويقابلها بالتنفس والانكار ولكنه ناسك حين يكون النسك و «عملا ايجابيا» يقاوم الشر ويود صاحبه لو يقرر الخير فى هذه الحياة وليس بالمستطيع ·

* * *

وأشبه بهذا أن يضاف اليه ما كتبناه فى مقال « معبد ايزيس » عن الطبيعة المصرية حيث قلنا منذ بضع عشرة سنة « كلما اقترب الموكب الضاحك » من جيرة المعبد بدا لنا منظر ههنا شعب يطير حول السرور طيران الفراش حول النور، ههنا معابد تسكن حركات فيها حركات النفس وتركد فيها نسمات الحياة · وهذه المعابد تقيض ذلك الشعب وعلى خلاف سمته وسنته ومن واد غير وادية يهيم فيه ، فكيف مع هذا كانت معابده التى يذكر فيها ربه ويعكس عليها ظل العالم فى نظره ؟ ويشكو لديها ما يلقاه من أمور دنياه وحظوظ حياته ؟ أليس هذا من التناقض الحقيقى بالعجب أليس هذا الشعب المسبشر قد كان أولى بغير هذه المعابد الكاسفة الواجمة ؟

أما التناقض فلا شك انه ملحوظ لكل ناظر ولكن فى ظاهر الأمر لا فى باطنه · فالحقيقة التى يهتدى اليها المتأمل ان هذه المعابد خلقت لهذا الشعب وان هذه الجهامة

لازمة لتلك الطاقة وان الشعب الذى يملك حسه السرور ويسهل استخفافه للطرب وانتقاله الى المجانة ليس يصلح له معبد فيه أثر من الطرب والبهجة وليس ينقله من عالم اللهو الى العـالم الالهى منظـر عليه مسـحة من الطلاوة والبشاشة . فلا بد له اذن من جهامة تخيم حوله على كل شىء حتى يتوب الى مقام الخشوع والضراعة ، ولا بد أن ينسى كل ما يذكره بالهزل والخفة ساعة يغشى محـراب العبادة كالطفل اللعوب لا تعلمه أن يهابك ويتحامى التأديب منك باللعب معه والتطلق فى كلامك له ؛ وانما يتعلم ذلك بالاحتجاز والجد أو بالقطوب والجفوة .

من مثل هذا جاءت الصرامة البادية على معابد المصريين وتطرقت الشدة الى شعائرهم الدينية ، وبلغ من حاجتهم أو من رغبتهم فيما يذكر بالحزن ساعة الصفو والرغد أنهم كانوا اذا اجتمعوا فى ولائمهم وظهر السرور على وجوههـم وأخذوا فى الرقص والمعاقرة وأمعنوا فى القصف والمسامرة خرج عليهم العبيد بجثة محنطة فى ناووسها فمروا بها بين الموائد وعرضوها على الضيوف والندماء لينظروا اليهـا ويعتبروا بها ، ويذكروا مصير ما هم فيه من نعيم زائل ولذة عاجلة .

ولا يفوتنا أن نقول ان المصرى اذا سر فانما يملك السرور حسه ولا يغمر نفسـه ؛ فهـو لا يألف السرور الصامت القرير ولا يعرف الا التهليل والابتهاج أو السكون

والخواء . لا تسر نفسه وجسمه ساكن ولا يسكن جسمه وأمامه محرك للسرور أو مذكر به ، وكيف يطيق من كان هذا طبعه أن يجمع بين التعبد وشيء من بوادر الصفو وبشائر الحياة وفي أماكن عبادته ومناسك دينه ؟ ثم انك أن ترد المصرى الى طبعه وترى حقيقة المناسبة بينه وبين معابده فانظر اليه حين يفرغ من سروره الذى يستحوذ على حواسه ويستخف أعضاء جسمه ؛ فانك تراه واجما مقفر النفس بادى الظلمة هامد العاطفة ويذكرك أول شيء بالمعبد المصرى القديم الذى نستغربه ونعجب أن يكون محل صلاته وباب دنياه الآخرة . فاذا هو هو فيما يغيم على ظاهرة من الكآبة والخوف ويرين على باطنه من الظلام والتسليم

ولنعلم ان المعبد المصرى فى العصور الأولى هو قرين المقبرة وصنو الموت ودهليز العالم الأخير ، ثم لنعلم بعد أن الموت عند قدماء المصريين هو هجعة الحس الى حين وراحة الجسم الى أجل ، ثم تعود الروح الى هذا الجسد الأول كما كانت قبل بعثها من عالم الأموات .

ومرادنا بذلك أن نقول : ان الجسد جزء من الانسان لم يكن يستغنى عنه فى هذه الحياة ولا فيما بعدها ولا يجوز أن يعمل فى حالة من الحالات أبدا فما كانت تعرف للنفس حياة بغير هذا الجسد ولا كان يفهم لها سكون أو حركة بغير سكون الجسد أو حركته ، فاذا أرادوا أن

يحملوا النفس على الخشوع بما يكف من نشاطها ويغل من حراكها وينسيها أبرا مرخصات الحياة وأبعد موحيات الطرب ، وأن يدخلوا العابد المصلى فى برزخ بين الحياة والموت وجسر بين الدار والقبر ··· وما ذلك الا الهيكل القديم كما بناه المصريون لأنفسهم أو كما بنته لهم الطبيعة التى لا تخطىء لها هندسة ولو بنت بأيدى الخاطئين » ·

* * *

تلك خطوط عاجلة لخصائص « النفس المصرية » كما ترى بعين الواقع لا كما ترى بعين الغرض والخرافة ؛ وهى خصائص انسانية تقترن بالقوة فتعد من أقـــوم وأفضل ما عرف عن أخلاق الشعوب ، وتقترن بالضعف فتســوء وتتغل · ولكن نظيرها فى مساوىء الضعف بين شعوب العالم ليس بقليل ·

د. رشاد رشدى

من أحبوا مصر

لم تكن مصر – على مر العصور – مجرد ملتقى جغرافى بين الشرق والغرب ، بل كانت قبلة شعوب العالم بأسره ، حضاريا وفكريا وثقافيا وروحيا وعلميا وفنيا . كان هناك دائما ذلك السحر الغامض الذى يأسر كل من مر بها ، أو عاشر أهلها ، أو شاهد آثارها ؛ أو جاب صحاريها ؛ أو شرب من نيلها ، أو درس حضارتها ، أو تعمق دياناتها . والمثل القائل بأن « من يشرب من ماء النيل لا بد أن يعود ثانية » لم يكن من قبيل الصدفة .

وقد تجلت هذه الظاهرة منذ أواخر القرن الثامن عشر عندما وفد الى مصر آلاف السياح والرحالة والمغامرين والباحثين والدارسين والفنانين والخبراء والعسكريين من أوروبا عامة وانجلترا خاصة حتى أصبحت مصر ضمن

الجولة الكبرى التى كان يقوم بها أبناء الطبقة الموسرة فى أوروبا .

فما قوة الجذب التى مارستها مصر على كل من عرفها أو هفت نفسه اليها من أبناء الشعوب الأخرى ؟

- ١ -

اذا القينا بنظرة على الكتب التى ألفت عن مصر بالانجليزية فى القرن الماضى ، سنجد أن عددها يفوق أى كتب تناولت نفس الموضوع قبل ذلك . وهذا يدل على أن القرن الماضى كان بداية الاهتمام العالمى الحقيقى بمصر وتاريخها وحضارتها . ولكى نلقى الضوء على مواطن هذا الاهتمام وكيف نشأ وتطور ، وأثره على كل من مصر والعالم الخارجى ، سنحاول أن نجعل من هذه المقالات نافذة يطل منها القارىء على السحر الكامن فى مصر ، وهو السحر الذى جذب القابعين وراء البحار والمحيطات اليها ولم يستطيعوا مقاومته فوقعوا فى حب مصر .

وهذا السحر هو الذى دفعهم أيضا الى تأليف مئات الكتب التى مهما اختلفت موضوعاتها ؛ فانها لا تشذ عن هذا الخط الذى يربطها بعضها ببعض برباط خفى وهذا الخط يمثل قصة مثيرة للغاية ، وهى ككل قصة لها بداية ووسط ونهاية . ولكننا هنا سنحاول أن نبدأ قبل

البداية الفعلية لنضع أيدينا على المصـــادر الأولى لهـذا الاتجاه ·

فى العشرين سنة التى سبقت الحملة الفرنسية فى ١٧٩٨ انحصر الاهتمام بمصر فى دائرة الرحالة الذين مروا بها فى طريقهم الى الهند كتجار أو جنود يعملون فى خـدمة شركة الهند الشرقية ؛ أو الذين جاءوا لاستكشاف قلب أفريقيا بسبب روح الاستكشاف التى شاعت مع نهاية القرن الثامن عشر ·

ولم تتسع دائرة الاهتمام لأن الشرق كله لم يكن مثيرا بالقدر الذى يؤدى الى حركة شاملة لاستكشاف كل جوانبه، فلم يعرف عنه الغرب سوى « ليالى ألف ليلة وليلة » التى ترجمت مع بداية القرن الثامن عشر ، وأدت ترجمتها الى ظهور ما عرف الحدوتة الشرقية حتى أن صامويل جونسون ألف « راسيلاس » على نمطها · ولكن الشرق كمنطقة جغرافية وتاريخية وحضارية لم يكن مثار اهتمام كاف · وحتى الكتاب لم يصفوا الشرق كما كان على حقيقته ولكنهم اتخـــذوا منه خلفية وصفية فقط لبث أفكارهم الفلسفية والأخلاقية والتهكمية ·

ولم يحدث أن قصد أحد زيارة مصر من أجل الزيارة والسياحة والاطلاع ؛ حتى أن معظم الملاحظات التى دونت حول هذا الموضوع لم تصف الناس أو المناظر الطبيعيـة أو الأرض · فلم تثر مصر فى نفوس الذين زاروهـــا فى

هذه الفترة المتأخرة من القرن الثامن عشر سوى الخواطر النفسية المرتبطة بالانجيل والأدب الكلاسيكى القديم . فقد كانت الآثار الفرعونية مجرد تذكير للزوار بأنه ما طار طير وارتفع الا وكما طار وقع ومن هؤلاء ايليس ايروين الذى مر بمصر عام ١٧٧٧ فى طريق عودته من الهند الى بلاده ، وقال أن مصر خير مكان يتعلم فيه الانسان التواضع بعد الكبرياء ، والدين بعد الالحاد ، والتعاليم الدينية التى تفوق أحلام الفلاسفة وكتاب الوعظ الدينى .

الماضى والعقيدة والأخلاق

وكان ايروين فى هذا يمثل ظاهرة بين كل الرحالة والمسافرين الذين كانت مصر بالنسبة لهم مجرد مكان لذكريات الماضى وتعاليم العقيدة وضرورة الأخلاق . فقد كتبت اليزا فاى عام ١٧٧٩ عندما رأت الأهرامات وهى فى طريقها الى الهند . قالت أنها لم يكن تتصور بناء ما زال قائما رغم أنه ينتمى الى ماض سحيق انتهى منذ زمن بعيد ولم يبق منه سوى الذكريات والأساطير والعبر الأخلاقية والأحاسيس الدينية .

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل بلغ ببعض الرحالة درجة التجلى والشفافية الصوفية فيقول فرانسيس كولينز عام ١٨٠١ أنه لم يستمتع فى حياته بالحضرة الالهية والتجلى الروحى الا عندما ركع للصلاة المقدسة على رمال مصر .

وكانت هناك أيضا النظرة العملية النفعيـــة التى تمثلت فى رجال من أمثال جورج بولدوين القنصل البريطانى العام الذى عمل فى مصر فى الفترة ما بين ١٧٨٦ و ١٧٩٦ والذى سجل فى مذكراته أنه يتحتم على انجلترا أن تشحن كل عام مالا يقل عن ألفى مركب محملة بخيرات مصر الى موانى انجلترا ·

أما جورج وليام براون فيمثل النظرة الموضوعية المنصفة فقد جاء الى مصر عام ١٧٩٢ لكى يستكشف الحبشة ، ولكنه لم يستطع أن يرحل بعد دارفور · فكانت النتيجة أن عاش فى مصر ست سنوات درس فيها اللغة العربيـة وعادات المصريين وسلوكهم · وسجل كل هذا فى كتاب صدر فى لندن عام ١٧٩٩ ، وعقد فى الكتاب مقـــارنة موضـــوعية بين الشرق والغرب · وأثبت أن الاغـــريق والأوروبيين قد ارتكبوا خطأ جسيما عندما اتهموا الشرق بالبربرية · فالشرق هو مهد الحب والاخـــاء والصداقة وكل القيم الأخلاقية · وهم يتحاشون الجريمة والعنف ؛ ونظرتهم الى الحياة نظرة رحبة محبة للانسانية · وهم فى هذا لا يختلفون مع الغرب الا فى الأسلوب الحار الذى يعبرون به عن عواطفهم ·

وفى هذا يعد كتاب براون أول كتاب يكتب خصيصا عن مصر وليس مجرد ملاحظات عابرة ؛ ومن هنا فتح باب الاهتمام الحقيقى والعملى بمصر والمصريين ، وهو الباب الذى دخل منه كثير من الأوروبيين فيما بعد ·

الحملة الفرنسية

كانت الحملة الفرنسية فى عام ١٧٩٨ أول اشارة تنبه أوروبا الى اهمية مصر كموقع جغرافى وتاريخى وحضارى . ويقول كثير من المؤرخين أن هذه الحملة أسرعت بالاهتمام الأوروبى بالشرق عامة . وتبع ذلك حركة الاستشراق التى تزعمها السير وليام جونز ، والتى ترجمت كثيرا من الأعمال الأدبية والفكرية من لغات شرقية متعددة الى اللغات الأوروبية وخاصة الانجليزية ، وكذلك أدت هذه الحـــركة الى تأليف العديد من كتب الرحلات . ولأول مرة يتحول الشرق الى موضوع قائم بذاته يستحق الدراسة ولم يعد مجرد وسيلة لبث الوعظ الدينى والعبر الأخلاقية .

واتجهت الأنظار الى مصر ، ليس بمجـــرد حب الاستطلاع ، ولكن لاشباع الأطماع أيضا . فقد بدأت فكرة الاحتلال تراود الأذهان لأول مرة نظرا لموقع مصر الاستراتيجى . ومعها ازدهرت الدراسات الحربية للمنطقة والكتب الجغرافية ، والرحلات والأشعار التى تتغنى بالنيل وأمجاد النيل ، وأيضا المقـــالات والأبحاث والصـــور الضاحكة . حتى الكتب الفرنسية التى ألفت أثناء الحملة ترجمت كلها الى الانجليزية . وأصبح كل شىء يمت لمصر بصلة مثارا لاهتمام عملى وعلمى .

وبدأت انجلترا تنظر بعين الرغبة فى الاتصال بمصر وطرد فرنسا منها . ولذلك شجعت كل ما من شانه أن

يربط تفكير شبابها بالحضارة المصرية القديمة · وخاصة أن علماء الحملة الفرنسية كانوا قد ألقوا أضواء كثيرة على الآثار المصرية من خلال الأبحاث والدراسات التى نشروها ·

ولذلك اهتمت انجلترا بالحصول على نماذج وعينات من هذه الآثار سواء من خلال الفرنسيين أنفسهم أو من خلال المجهودات الفردية الخاصة · وأنشأت لهذا الغرض متحفا خاصا فى لندن أطلق عليه « القاعة المصرية » فى منطقة بيكاديللى عام ١٨١٢ وظل هذا المتحف قائما حتى بداية العشرينات من هذا القرن · وقد أغرم الانجليز بزيارة هذه القاعة سواء كانوا يعيشون فى الضواحى أو فى الأقاليم البعيدة · وأيضا تأسست الجمعيات والمنظمات التى لم تترك أية فرصة للحصول على مومياء أو مسلة · وأصبح الطراز المصرى هو الأسلوب السائد لهذا العصر والمميز لكل أنواع الزخارف المختلفة ·

وفى نفس الوقت كان المتحف البريطانى يعمل بكل همة على جلب الآثار من مصر من خلال الرحالة والسماسرة الانجليز · وأصبح هذا حديث الناس فى كل مكان لدرجة أنه عندما وصلت رأس رمسيس الثانى الى لندن لاقامتها فى المتحف البريطانى · اعتبر هذا حدث تاريخى وكان مثارا لتعليقات كل الصحف والمجلات المتخصصة وغير المتخصصة على حد سواء · وبعد ذلك أصبح من الأخبار

والأحداث المثيرة لاهتمام القراء بما يكتب عن الآثار المصرية وتاريخ نحتها أو تاريخ وصولها الى انجلترا ٠ وتنافست المجلات والدوريات فى الحصول على أغرب الأخبار وأكثرها جدة ٠

الحضارة المصرية العريقة

وتفتحت أبواب الحضارة المصرية العريقة أمام الأوربيين الذين لم يقنعوا بالآثار فحسب بل درسوا الملابس والفنون والأساطير والهندسة المعمارية ، لدرجة أن عالما للآثار كتب عام ١٨٢٠ يقول أنه أصبحت هناك مادة كافية لبداية علم المصريات ٠

وامتد سحر مصر ليشمل الشعر الأوروبى أيضا ؛ فقد أوحت رأس رمسيس الثانى الى الشاعر شيللى بكتابة قصيدته الشهيرة « أوزيماندياس » عام ١٨١٨ ، وفى العام نفسه ألف الشاعر لى هنت قصيدة عن النيل وفيها يمر بالقارىء عبر الآثار التى تقع على ضفتيه ٠ وهناك قصائد أخرى بعنوان « هايبريون » و « آلاستور » لشيللى وكيتس وفيها يعبر الشاعران عن هيامهما بسحر مصر وتاريخ مصر ٠

أذهلت الحضارة المصرية الانجليز على وجه الخصوص لدرجة أن عدد الزوار فى العشرين سنة الأولى من القرن التاسع عشر يزيد عن عدد زوارها بطول القرن الثامن

عشر كله . وأصبحت مصر جزءا من الجولة الكبرى التى كان يقوم بها أبناء الارستقراطية الأوروبية عبر القارة . فقد أثبتت الحملة الفرنسية أن مصر تقترب كثيرا من أوروبا والبحر المتوسط ليس بالفاصل الشاسع الذى يستطيع عزلها .

وشجع على ازدياد الرحلات والزيارات الأمن الذى كانت تتمتع به مصر تحت حكم محمد على . فلم يكن هناك خوف من مصادرة الأموال والممتلكات والمآزق الأخرى التى كان يتعرض لها الرحالة أيام حكم المماليك . ولذلك حمل الرحالة المال والذهب دون خوف من قطاع طرق أو لصوص . وتضاعف عدد الزوار والسياح ، وأصبح الاصطلاح المحبب الى النفوس هو أن انجلترا الصغيرة تجرى لترتمى فى أحضان مصر القديمة . حتى أنه كان من السهل أن تقابل انجليزيا فى كل شارع فى لندن ليقول لك أنه عائد لتوه من شواطىء البحر الاحمر أو من شلالات النيل .

ولكن ماذا فعل هؤلاء الرحالة فى بلادنا ؛ وما السر فى انجذابهم اليها بهذا الشكل الخطير ؟ من هم وماذا كانت أغراضهم الحقيقية وماذا حققوا منها ؟

- ٢ -

أصبحت مصر منذ أواخر القرن الثامن عشر السحر الذى يأسر كل من تتفتح عيناه عليه سواء من الرحـالة

أو المستكشفين أو الدارسين أو المغامـرين أو التجار ؛ وخاصة هؤلاء الذين عاشوا لمدد متفاوتة في مصر وعاشروا أهلها من أمثال قناصل انجلترا وفرنسا . وقد ســـجل السير فريدريك هينيكر هذه الظاهرة في كتابه « ملاحظات حول زيارتي لمصر » عام ١٨١٩ فقال ان طيبة كانت المحراب الذى يحج اليه قناصل انجلترا وفرنسا . ولم يكتف معظمهم بالقيام بأعمال القنصلية بل أغرموا بالتجوال في البلاد لدراسة تاريخها الذى كان يتكشف يوما بعد يوم ؛ بكل سحره وغموضه وروعته .

ومن هؤلاء القناصل اشتهر هنرى صولت القنصل البريطانى العام فى القاهرة الذى اصطحب الكونت فالنتيا عام ١٨٠٦ فى جولة دراسية وسياحية ، وقام برسم مناظر عديدة للقاهرة من زوايا مختلفة وطبعت وعرضت فيما بعد في ميدان ليستر بلندن . ولم يكتف بهذا بل شرع فى تكوين مجموعة من الآثار لحساب ايرل أوف ماونت نوريس بعد ذلك كرس حياته كلها لدراسة تاريخ مصر وآثارها حتى وفاته عام ١٨٢٧ .

ويبدو أن غرامه بالآثار المصرية قد بلغ حد الولع والجنون ، فلم تكن تقف فى طريقه أية عقبة لتحقيق أغراضه لدرجة أن قيمة ما جمعه من الآثار فى ذلك الوقت كان يربو على أربعة آلاف من الجنيهات الاسترلينية . وما زالت مجموعته من أوراق البردى من أروع المجموعات التى عرفها

العالم حتى الآن · ولكن صولت لم يكن مجرد جامع للآثار والحفريات ، بل كان الدافع الرئيسي وراء هذا النشاط الذى لا يفتر هو جنونه بالسحر الغامض الكامن فى مصر بصفة عامة ومصر القديمة بصفة خاصة · ولذلك كان نشاطه رومانسيا عاطفيا أكثر منه دراسة علمية منهجية · فيقول فى خطاب بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٨١٨ الى صديق له أن المتعة الفائقة التى يستشعرها فى زيارة ورسم الآثار الخالدة السامية التى تأسر بسحرها كل من يشاهدها ؛ هى الدافع وراء نشاطه الجم · فهو يحس أن حياته تمتد عبر آلاف السنين · ومن يرى مصر ولو لحظات لابد أن تتحول الى قطعة نابضة من وجدانه ·

وقد عبر صولت فى خطابه عن حنينه الى وطنه ورغبته الشديدة فى العودة الى انجلترا ، ولكنه لم يضع هذه الرغبة موضع التنفيذ قط لأنه لم يستطع التخلص من سحر مصر · فلم يكن هدفه الاثراء أو الطموح أو المغامرة بل كان ممارسة ذلك الاحساس الساحر الممتع الذى لم يكن يشبع أبدا ؛ لدرجة أنه تحول الى شاعر أيضا ونشر قصيدة فى الاسكندرية عام ١٨٢٤ تحت عنوان « مصر قصيدة وصفية » والقصيدة مشحونة بحب مصر فهو يعتبرها المعبودة التى يجب أن يتعبد فى محرابها كل البشر من مشارق الأرض ومغاربها · فهى تمنح البهجة والسرور والحبور من خلال الآثار الخالدة ينسى الانسان آلامه وهمومه ومخاوفه ويتحول الى انسان نقى متطهر

آلامه وهمومه ومخاوفه ويتحول الى انسان نقى متطهر من كل أدران الدنيا وشوائبها . ومن المعروف أن صولت كتب هذه القصيدة كنوع من التنفيس عن آلامه بسبب وفاة زوجته وطفلها فى أثناء الولادة ، وكذلك صديقه « لى » قنصل بريطانيا فى الاسكندرية .

جايوفانى باتيستا بيلزونى

واذا كان أشهر انجاز حققه صولت لانجلترا هو نقل رأس ممنون عام ١٨١٦ من طيبة الى الاسكندرية ثم شحنه الى لندن حيث استقر فى المتحف البريطانى ، فان الفضل فى ذلك يرجع أساسا الى جايوفانى باتيستا بيلزونى الذى قام بالجزء الأكبر من هذه المهمة التاريخية فقد وصل بيلزونى الى مصر عام ١٨١٥ لاقامة محطة هيدروليكية جديدة طبقا لرغبة محمد على ، ولما فشل فى هذه المهمة بحث عن شيء جديد يبرر به وجوده فى مصر وكان أن اتصل بصولت عن طريق صديق سويسرى عندئذ بدأ بيلزونى أبحاثه فى الآثار المصرية التى استمرت أربع سنوات متصلة جاب خلالها البلاد طولا وعرضا مع زوجته الانجليزية وصبى ايرلندى أحضره معه من انجلترا وقد نشر تجربته المثيرة فيما بعد فى كتاب نشر فى لندن عام ١٨٢٠ بعنوان « قصة الاكتشافات الجديدة فى مصر والنوبة » . وقد لاقى الكتاب نجاحا كبيرا حتى أنه طبع أربع مرات فى سنوات متتالية وفى عواصم مختلفة .

وقد قامت شهرة بيلزوني عندما تمكن من فتح هرم الجيزة الثاني (خفرع) وأيضا معبد أبو سمبل ولكنه لم يكن عالم آثار بمعنى الكلمة فقــد كان هدفه الشــهرة والثراء . ولم يحترم الآثار التى كانت السبب فى شهرته بل أنه جعل من الموميات وقودا لاشعال النار فى الليالى التى كان يتعذر عليه فيها الحصول على وقود . ولم يتبع أى مهنج علمى فى الدراسة ، وهذا يبدو واضحا فى كتابه الزاخر بالمغامرات والعداوات التى اشتعلت بينـه وبين المتكالبين على الآثار . فهو يتكلم عن فتحه لهرم خفرع كما لو كان مجرد مغامرة أو سباق بينه وبين القنصل الفرنسى الكونت دى فوربين الذى أغرم بنفس اللعبة .

ولكن لم يتوقف الامر على كل من صولت وبيلزونى قد أصبحت مصر قبلة العالم الغربى فى العشرينات من القرن التاسع عشر ؛ وأصبحت زيارة مصر امتدادا للجولة الكبرى التى كان يقوم بها أبناء الطبقة الارستقراطية فى أوروبا . وبالاضافة الى هؤلاء جاء الى مصر الضباط الذين يعملون بالهند لقضاء أجازاتهم ، ورجال الأســطول الذين أحيلوا الى المعاش ، والمدرسون الذين كانوا فى معية النبلاء ؛ وأيضا المغامرون ، والشــباب فى أوقات فراغهـم ، والصحافيون والديبلوماسيون وحتى أعضاء البرلمان لم تفتهم الفرصة لكى يعيشوا بين أحضان مصر الساحرة .

وفى نفس الفترة نشر عن مصر أكثر من خمســة

وثلاثين كتابا ، معظمها يدور حول آثارها • وكانت هذه الآثار فى القرن الثامن عشر مجرد حفريات قديمة تنتمى الى ماض اندثر ، ولكن بعد نشر هذه الكتب أصبحت هذه الآثار رموزا حية لحضارة كانت أما لكل الحضارات الماضية والمعاصرة • وهى حضارة أشعلت الخيال الرومانسى الذى كان سائدا فى أوروبا فى القرن التاسع عشر وتحولت زيارة الآثار الى نوع من الحج الحافل بالانبهار بل والتقديس •

مستشار محمد على

ولم يقتصر هذا الانبهار على الرحالة والمغـــامرين والشعراء والسياح بل سيطر أيضا على العلمـــاء والخبراء الذين استقدمهم محمد على من أوروبا لكى يساهموا فى النهضة المصرية • من هؤلاء جيمس سيلك باكنجهام الذى عمل مستشارا لمحمد على فى كثـير من المشروعـات التى أقيمت والذى أقترح على محمد على ايفاد الشباب المصرى الى انجلترا فى بعثات دراسية • يقول باكنجهام أنه لا يقصد بهذا أن انجلترا هى منبع الحضارة ولكنها أقامت حضارتها على الحضارة المصرية التى تبدو آثارها وكأنها حلم باهر من الأحلام التى يصعب تصديقها • فالخيال يتحول الى أشياء ملموسة ومنظورة حتى ليختلط على الانسان هل هو فى حلم أم علم ؟! ثم يؤكد باكنجهام فى مذكراته عام ١٨١٤ أنه لولا أنه زار هذه الآثار مع أصدقاء وشاهدوها معه لربما لم يصدق ان ما رآه كان حقيقة •

فاذا كان هذا كلام عالم ممن لا يؤمنون الا بالحقائق فما بالك بالفنانين ودارسى الفن الذين وفدوا الى مصر بعد فترة العشرينات . لم تعد مهمتهم مجرد ارسال التقارير عما يشاهدونه لأنها لن تضيف كثيرا الى الكتب التى أغرقت السوق فى ذلك الوقت ؛ بل وجدوا أن دراسة الجوانب الاخرى والخصبة لهذه الحضارة العريقة كفيلة بتقديم الجديد فعلا ، الجديد الذى يعتمد على التحليل والتفسير والشرح وليس مجرد الوصف . فقد أصبح الهدف تقديم صورة شاملة لهذه الحضارة من خلال الآثار التى تمثلها ؛ أى الربط بين الجزئيات لتقديم كل له معنى . وقد ساعدت الروح الرومانسية السائدة على تكملة مساحات الصورة التى قد يعجز العلم عن شغلها ولكن البحث العلمى قام بدور كبير فى توفير المادة العلمية وخاصة بعد اكتشافات توماس يانج وشامبيليون التى أدت الى معرفة الأبجدية المصرية من خلال حجر رشيد .

وقد أغرم الفنانون برسم بانوراما عريضة للآثار المصرية ، ولم يكونوا فى عجلة من أمرهم من ناحية العرض والنشر مثلما فعل من سبقهم ، بل أن كثيرا من انتاجهم لم يعرض أو ينشر حتى الآن ، ولكنهم مع ذلك سجلوا الصورة العلمية الصادقة للوضع الذى كانت عليه الآثار فى عهدهم وهو وضع معرض للتغيير بحكم سنة التطور من هنا كانت القيمة العلمية التى يحتوى عليها انتاجهم .

ومن أشهر الدارسين كان روبرت هاى منظم البعثه المصرية التى عملت بين عامى ١٨٢٦ و ١٨٣٨ وضمت من الفنانين والدارسين من لم يكتف فقط بالدراسة بل تطور الأمر الى المعايشة الكاملة للحياة الشرقية ، فأتقنوا اللغة العربية وأطلقوا لحاهم ، واستأجر كل منهم مسكنا فى طيبة وآخر فى القاهرة حيث أقاموا الحفلات الموسيقية التركية لأصدقائهم القاهريين • ولأن التقاليد التركية كانت لاتسمح باقامة الاجانب الذين يرتدون الملابس الافرنجية فقد ارتدوا الشرقية • واختار روبرت هاى مقبرة فى طيبة ليجعل منهـا سكنا له مع زوجته ومعظم أعضـاء البعثة • وقام بتأثيث المقبرة الأثرية بمكتبة قيمة وأرائك وموائد وكل وسائل الراحة • وتحولت المقبرة الى ندوة يناقش فيها الأعضاء كل الموضوعات الممكنة من فنون وعلوم وآداب وآثار • ويقول أحد أعضاء البعثة فى مذكراته أن الأمسيات التى قضاها فى هذه المقبرة كانت أسعد لحظات مرت به فى حياته !!

ولم ينشر من انتاج هذه البعثة سـوى كتاب هاى « صور قاهرية » ، وهو يشتمل على لوحات ورسـومات ومذكرات ويصل عدد مجلداته الى المائتين • ويوجد الآن فى قسم المخطوطات الاضافية بالمتحف البريطانى فى لندن ولكن كثيرا من انتاج البعثة يوجد فى أعمال علماء المصريات التى نشرت أثناء أو بعد البعثة •

هناك دارس كبير آخـر للفن المصرى وفد الى مصر عام ١٨٢١ · فقد اشتهر السير جون جاردنر ويلكينسون بغـرامة بكل ما هـو مصرى · فدرس اللغتين القبطيـة والعربية لمدة ١٢ سنة وقام برصد وتصوير ورسم الآثار ثم انتقل الى مهمة الحفر والاستكشاف وقارن بين كتابات الفراعنة وما وصل اليه من أبحاث واكتشافات · وسجل كل هذا فى كتاب نشر عام ١٨٣٣ بعنوان : « طبوغرافية طيبة والمسـح العام لمصر » ثم أعقبـه بكتاب أكثر قيمـة بعنوان « العـادات والتقاليد عند قدماء المصريين » الذى ركز فيه عصارة خبرته وخبرات من سبقه فى هذا المجال من أمثال شامبيليون وروسيلينى · ولكنه امتاز عنهما فى أنه اهتم بالحياة اليومية لقدماء المصريين أكثر من اهتمامه بقضايا اللغة وغيرها من القضايا المجردة ولذلك كان اقبال القراء على كتابه عظيما · فقد نجح فى رسم صورة حية ونابضة لجوانب عديدة للحياة المصرية القديمة بكل ما قدمته للانسانية من حضارة عريقة ·

وقد انتقـل تأثير الحضـارة المصرية الى الأدب الانجليزى فنشر العديد من القصائد فى مختلف الدوريات؛ كما نشرت رواية ضخمة عام ١٨٢٤ بعنوان « رمسيس » وذلك فى ثلاثة مجلدات · وهـكذا طغت روح الحضـارة المصرية العريقة على أسلوب الحضـارة الغربية فى القرن التاسع عشر · ترى هـل توقف أثرها عند هذا الحـد أم تغلغلت الى نواح أخرى فى حياة الغرب ؟

- ٣ -

عند ما طغت روح الحضـــارة المصرية العريقـة على أسلوب الحياة الغربية فى القرن التاسع عشر ، لم يقتصر الاهتمام على الآثار والحفريات فحسب بل تغلغل الى حياة المصريين نفسها سواء كانت الحياة القديمة أو المعاصرة . فبدأ ولع الوافدين واضحا بكل ما يمت الى مصر بصلة : المناظر الطبيعية وخفايا القاهرة والمناخ البـديع وعـادات المصريين وسلوكهم فى الحياة اليومية .

وفى عام ١٨١٩ أعلن الســير فريدريك هينيكر ان اهتمامه ينصب أساسا على الطبيعة الرائعة التى تكســو مصر بالسحر الأخاذ أكثر من الأعمـال الفنية التى تركها الفراعنة . وبعد هينيكر بثلاث سنوات كتب مويل شيرار يقول أن هدفه من زيارة مصر لم يكن مركزا على شيء بعينه لأنه كان يريد أن يمسح بعينيه كل شيء . ومن ثم فهو يقول فى مقدمة كتابه «مناظر وانطباعات عن مصر وايطاليا» أن حديثه ليس موجها الى الدارس أو رجل العلم أو الفنان بقدر ما هو موجه الى القـارىء العـادى ذى المعلومات العـــامة .

وفى عام ١٨٣١ قامت مجلة « ادنبره ريفيو » بعرض للكتب التى صدرت حديثا عن مصر ؛ وعلقت على هذا بقولها

أن هناك من العجائب ما لم يكتشف بعد فى مصر ، ولكن معظم الكتب لم تحاول أن تتبع المنهج العلمى الذى يوصلها الى اكتشاف هذه العجائب بل اكتفت بالوصف الخارجى للبلاد وسلوك أهلها فى حياتهم اليومية وقد أكد هذا الاتجاه عام ١٨٣٢ جيمس أوجاستس سان جون الرحالة الذى عشق مصر فكتب يقول عن زيارته للقاهرة أنه لا يبحث عن الآثار ولا الاهرامات ولا المعابد ولا أى شىء من شأنه أن يشتت انتباهه بعيدا عن الحياة المعاصرة للرجال والنساء والأطفال الذين يعيش وسطهم ٠

وهذا لا يعنى أن الآثار لم تعد مثار اهتمام القادمين الى مصر ، ولكنها أصبحت احدى عوامل الجذب بعد أن كانت العامل الوحيد قبل ذلك وخاصة أنه صدر الكثير من الكتب والرسومات والصور التى تحيط بجوانب عديدة لهذه الآثار ولذلك تشعب الاهتمام الى اتجاهات أخرى ٠ وقد تفرغ الاهتمام بالآثار وجهة جديدة ، فبعد أن كان قاصرا على الوصف الخارجى للتفاصيل والجزئيات ، انصب على التحليل والتفسير العلمى محاولا ربط التفاصيل والجزئيات فى خط علمى مترابط أو صورة بانورامية شاملة ٠ وكان هذا بمثابة البداية الحقيقية لعلم المصريات وبظهور هؤلاء العلماء أصبح وصف الرحالة العادى للآثار بغير ذى معنى ولذلك اتجه الى الجوانب الأخرى للحضارة المصرية ٠

الانسان فى حد ذاته

ونعل هذا الاتجاه الجديد الذى اهتم بالانسان المصرى المعاصر كان نتيجة مباشرة للثورة الفرنسية التى نادت بجدية الاهتمام بدراسة الانسان والمجتمع الذى يعيش فيه ، كما كان نتيجة مباشرة لظهور محمد على الذى جذب الأنظار الى مصر كدولة قوية ولذلك أقبل المهتمون بأمرها لدراسة أحوالها · فقد بدأت مصر فى النمو العسكرى والسياسى ليس فقط فى مواجهة الامبراطورية العثمانية ، ولكن فى مواجهة السياسة الأوروبية الجديدة التى تنظر بعين الحذر الى مجرى العلاقات بين روسيا وتركيا · أى أن مصر أصبحت قوة فعالة فى السياسة العالمية المعاصرة بوصول محمد على الى الحكم · وقد أصبح نظام الحكم هذا من الأهمية بحيث كان الهدف الوحيد لبعض الزائرين والمبعوثين والرحالة لكى يكتبوا عنه التقارير المفصلة · وأصبحت مقابلة محمد على باشا حلم كل الزوار الذين يرغبون فى الكتابة عن مصر : وفى تقديم وصف مشوق للقارىء الغربى عما دار فى هذه المقابلة ، وفى تحليل الطريقة التى يحكم بها الباشا المصريين ·

وبعد عام ١٨٢٠ زادت أهمية مصر عند ما برزت فكرة تأمين الطريق البرى المؤدى الى الهند وحتى قبل أن يبدأ توماس واجهورن نشاطه عام ١٨٢٩ كانت هناك محاولات عديدة لتشجيع هذا المشروع وتثبيت دعائمه ·

وكانت النتيجة أن تحول اهتمام المتحمسين للمشروع الى مصر نفسها بحيث لم تعد مجرد نقطة حراسة على الطريق الى الهند ٠

وهناك عامل سيكلوجى ساعد على انتشار الاهتمام بمصر ؛ فقد نجحت الكتب العديدة التى كتبت عن مصر فى الانتشار ؛ ومر كثير من الغربيين بتجربة المعايشة فى مصر ، بحيث أصبحت مصر جزءا من التفكير الأوروبى ولم تعد مجرد خلفية وصفية للتأملات والمواعظ والحكم ٠

وهناك كثيرون وقعوا فى حب مصر وجاءوا اليها خصيصا لاشباع هذا النهم العاطفى ، لم يجيئوا هذه المرة لوصف الآثار أو كتابة التقارير وانما للمرور بهذه التجربة السيكلوجية الممتعة التى لم تكن بلادهم تتيحها لهم بأية حال من الأحوال ٠

ونحن نعلم أن الاهتمام يجر اهتماما مضاعفا وهكذا ٠ فقد أصبح حب مصر عدوى تنتقل بسرعة البرق وقل ان ينجو منها أوروبى أطلع على شئون مصر أو عرف شيئا عن أحوالها ٠ وأصيب الانجليز بالذات بجنون اسمه مصر ، حتى أن كاتبا فى عام ١٨٢٤ كتب يقول اننا ننتظر الخطابات والمراسلات والتقارير الفنية القادمة من واحات مصر وشلالات النيل بنفس الانتظام الذى يرد به البريد اليومى من أقرب مدينة انجليزية ٠

ولم تعــد المعلومات الواردة من مصر وعنها مجــرد شذرات من هنا وهناك ، بل أصبحت ترتبط بالمنهج العلمى الذى يحلل ويقارن ويضاهى ويفسر ، وبذلك أصبح لدينا ما يمكن أن يسمى بالبانورامات المصرية التى ترصد كل المعلومات عن مصر وتضعها فى مكانها المناسب من الاطار العــام أو اللوحة الشــاملة . فأصبحت التقارير زاخرة بالتفاصيل الدقيقة والاهتمام الزائد بل والحب البالغ ، وشحنت الصورة بكل الألوان والظلال التى تضفى عليها ثراء وخصوبة واثارة .

وكان أول ما جذب الاهتمام فى هذه البانوراما هو المناظر الطبيعية التى تزخر بها مصر . فنرى وصفا حيا لضفاف النيل ؛ وحقول القطن ، وقرى الصعيد الغارقة حتى أذنيها فى مياه الفيضان ؛ وبزوغ القمر الفضى على صفحة الصحراء الذهبية عند مغيب الشمس ، وكان مغيب الشمس بصفة خاصة من المناظر التى سحرت الأوروبيين حتى ان الرحالة ج . ا . سان جون كتب عام ١٨٣٢ يقول أن غروب الشمس فى مصر يستحق القيام برحلة اليها أكثر من الذهاب الى الاهرامات بكل جلالها .

وأيضــا تصف آن كاترين ايلوود التى كانت فى زيارة مع زوجها لمصر عام ١٨٢٥ فى طريقهما الى الهند « رحلة نيلية » عند الغروب فتقول :

« كان ضوء النهار يتوارى فى خجل وراء الشفق الناعم ، وهناك كانت البهجة كل البهجة فى الانسياب فى قارب فوق صفحة هذا النهر المهيب ، وهى البهجة التى تنسى الانسان كل متاعبه ويسبح فى ملكوت من الرؤى والخيالات المنطلقة الى آفاق سرمدية . فعندما يلتقى الخيال الأوروبى بمناظر الشرق الساحرة ، يلد هذا اللقاء عالما زخرا بالنشوة التى لا نعرفها الا فى الأساطير عالما يلتقى فيه المستحيل بالممكن وتتجسد فيه الأطياف النورانية لكى تراها العين البشرية » .

والشىء الآخر الذى جذب اهتمام الأوروبيين هو الاختلاف البين بين تقاليد المجتمع المصرى وعاداته وبين تفكير العقل الأوروبى ومفاهيمه . فقد كتب جيمس وبستر فى زيارة له لمصر عام ١٨٢٨ أن الأوروبى يجد فى مصر كل شىء مختلفا وجديدا كل الجدة عليه ، سواء فى نظام الحكم أو ممارسة العقيدة أو سلوك الناس . وكان الاختلاف بين العالمين مصدر الهام وسحر لكثيرين من الرحالة الذين وصفوا المجتمع المصرى عن حب واعجاب .

العادات والتقاليد المصرية

ولقد تمثل الاهتمام الزائد بالحياة المعاصرة للمصريين فى كاتبين هما : روبرت كيرزون وادوارد وليام لين . ورغم أنهما عاشا فى مصر فى فترة واحدة الا أن اهتماماتهما

كانت مختلفة فقد زار روبرت كيرزون مصر والأراضى المقدسة عام ١٨٣٣ بحثا عن مخطوطات قديمة فى مكتبات الأديرة وعند ما عاد الى انجلترا عكف على دراسة هذه المخطوطات مع تسجيل كل المناظر والانطباعات التى ارتسمت فى مخيلته • وكانت النتيجة كتابا مثيرا طبع فى لندن عام ١٨٤٩ تحت عنوان « زيارات الى أديرة شرق البحر المتوسط » وكان ناجحا لدرجة أنه طبع حوالى عشر مرات حتى عام ١٨٩٧ •

وفى هذا الكتاب لا يتبع كيرزون أسلوب الرحالة الذين يسجلون انطباعاتهم من وحى اللحظة أو الذين يستخرجون الحكم والمواعظ من مشاهداتهم ، أو الذين يهدفون الى تزويد القارىء بأكبر كمية ممكنة من المعلومات، ولكنه يتبع منهج الفنان الذى يتلمس الوحى مما يشاهده ثم يصبه فى قالب جميل • وكلما امتد بنا السرد تكشفت لنا مصر بكل لوحاتها ومناظرها الساحرة ، بكل أساطيرها ولحظاتها الحالمة • وفى كل لمحة نحس بوعى الكاتب الشديد بالاختلاف الواضح بين سحر الشرق ومادية الغرب •

أما ادوارد وليام لين فقد ركز وصفه على ما رآه فعلا بالعين المجردة وليس على اعتمادا على الاستيعاب والبصيرة كما فعل كيرزون • فيحرص لين على أن يجعل من كتابه « سلوك وعادات المصريين المعاصرين » مرآة صادقة تنعكس عليها صورة المجتمع المصرى بحيث تتلاشى منها شخصية

المؤلف وانطباعاته الذاتية • وقد قال فى مقدمة الكتاب أن زيارته الأولى لمصر عام ١٨٢٥ كان الهدف منها هو دراسة لغة المصريين وعاداتهم وكان ضمن أسباب اعجابه بالقاهرة أنها أكبر مدينة عربية تتمثل فيها كل أساطير ألف ليلة وليلة • ولين فى هذا يتفق مع كثير من الرحالة الغربيين الذين جاءوا الى مصر حتى يشاهدوا ألف ليلة وليلة على الطبيعة •

وقد شجع على دراسة اللغة العربية والحضارة المصرية حركة الاستشراق التى تزعمها السير وليـــام جونز فى بدايات القرن ، والتى نتج عنها كثير من الترجمات عن العربية ، لدرجة أن الشاعر الانجليزى شيللى قد أصاب بعض النجاح فى تعلم العربية • وأنشئت عام ١٨٣١ هيئة دعم الترجمة الشرقية التى ترجمت العـــديد من الكتب العربية • ثم قام فالجانس فريسنيل ـ أحد أصـــدقاء لين ـ بكتابة تاريخ العرب الأوائل بينما نهض الســير جاردنر ويلكينسون بكتابة تاريخ المصريين القدماء • وكان الاهتمام الأول لحركة الاستشراق منصبا على منطقة شرق البحر المتوسط ولذلك أصبحت مصر قبـــلة هؤلاء المستشرقين •

وكان لين أحد زعماء هذه الحركة بكتابه الموســوعى الضخم « وصف مصر » الذى احتوى على خمسة مجلدات من المخطوطات وأكثر من مائة صورة ورسم توضيحى • وهو يعد اضافة كبيرة لكل ما كتب عن مصر وخاصـــة

ما يحـــويه قسم المخطـــوطات الاضافيـــة فى المتحف البريطانى • وهذا الكتاب يعالج الآثار الفرعونية ونظـام الحكم أيام محمد على وحبايا القـاهرة وعادات المصريين • والكتاب يوضح مدى معرفة لين الوثيقة بالحيـــاة المصرية واللغة العربية •

ولقد لاقت معظم كتب لين عن مصر نجاحا ضـــخما لأنها أشبعت رغبة كانت تراود القراء الانجليز ، فقـــد كانت بمثابة القمة التى بلغتها موجة الاستشراق والاهتمام بذلك البلد الساحر : مصر • فساعدت هذه الكتب على دراسة مصر ككل وليس كمجرد جزئيات مثيرة للاهتمام الفردى • ولأول مرة أصبحت المصريات ضمن العـــلوم والمعارف التى يتحتم على كل مثقف أن ينال نصـــــيبه منها •

– ٤ –

يعد ظهور كتاب ادوارد وليام لين « ملوك وعادات المصريين المعاصرين » عام ١٨٣٦ ، مرحلة جديدة فى نوعية الجاذبية التى مارستها مصر على كل من احتك بهـــا من الأوروبيين • فحتى ذلك الحين كانت مصر مثار اهتمـام اما لعلماء الآثار من أمثال ويلكنيسون ، أو للدارسين من أمثال لين ، أو المغامرين من أمثال هينيـــكر أو المسافرين الى الهند ، أو أبناء الطبقة الموسرة فى أوروبا التى رأت أن تمد جولتها الأوروبية الكبرى لتشمل مصر أيضا •

ولكن لم تكتسب مصر شعبيتها الساحقة بين الأوروبيين الا بعد عام ١٨٣٥ بحيث لم يعد الانجليز من أوائل الوافدين اليها بل شاركهم في هذا سائر الأوروبيين فنجد العلامة الفرنسى جان ـ مارى كارى يضع مؤلفا مثيرا بعنوان « الرحلات والقوافل الفرنسية فى مصر » الذى يؤكد فيه أن مصر أصبحت السحر الذى يجذب من بعيد مئات بل وآلاف الكتاب والرحالة الفرنسيين من أمثال جوستاف فلوبير وغيره من الروائيين والأدباء الفرنسيين الذين بزغ نجمهم فى الثلاثينيات من القرن الماضى .

وما ينطبق على الأدباء الفرنسيين ينطبق أيضا على الانجليز الذين وفدوا فيما بين عامى ١٨٣٥ و ١٨٥٠ وعلى رأسهم الروائى الانجليزى الكبير وليام ليكيبس تاكرى ، وهاربيت مارتينو ، والكسندر كينجليك ، واليوت وروبير تون ولورد لندساى ، وريتشارد موكتون مايلنز ، وأصبحت مصر ملتقى السياح من جميع الطبقات والثقافات والجنسيات ، ابتداء من المراسلين الذين جاءوا لكتابة التقارير عن حكم محمد على ، الى التجار ورجال الأعمال ، الى المرضى الباحثين عن الشفاء ، الى المسافرين الهنود ، الى السياح المتطلعين الى قضاء عطلة سعيدة ، الى دارسى الأديان والعقائد الى المبشرين ، الى الأدباء والفنانين التشكيليين الذين يلهثون وراء الأفكار والمضامين الجديدة .

وأصبحت بقاع كثيرة من مصر مألوفة لدى الأوروبيين

مثل المناطق السياحية الشهيرة فى سويسرا وفرنسا وايطاليا ، وأصبح الأوروبيون يتكلمون بدراية كاملة عن أسواق القاهرة ، والحمارة فى الاسكندرية ، ورحلات القوارب الشراعية بطول ترعة المحمودية ، وفندق الشرق فى الأزبكية ، وسحر معابد فيلة ، والقاهرة الناعسة عند سفح القلعة ، والنسيم العليل فى أرض النوبة • حتى الروائى الساخر ثاكرى الذى لم يعرف طريق الجدية فى معظم كتاباته نجده يصف كثيرا من اللوحات الحية بمنتهى الاحترام والوقار والاعجاب •

وسائل الاتصال والنقل

وكانت وسائل الاتصال والنقل الحديثة من الأسباب الكامنة وراء الشعبية الساحقة التى اكتسبتها مصر • فقد ساعدت البواخر على تسهيل انتقال الوافدين بما أتاحته لهم من أسباب الأمن ووسائل الراحة • وفى عام ١٨٤١ استطاع توماس واجهورن انشاء شركة للملاحة والسياحة قامت بتسيير السفن البخارية على النيل وقناة الاسكندرية، واعتنت أيضا بمركبات النقل البرى التى تجرها الخيول • وأصبح الطريق بين القاهرة والسويس مألوفا للعربات السريعة وعلى جانبيه الخانات والفنادق الصغيرة لراحة المسافرين • وخصصت عربات أخرى للسيدات والأطفال والمرضى ، وانتظم البريد اليومى • ولم تكن هذه البقعة

لتختلف عن أية بقعة فى انجلترا متصلة بلنـدن بطريق برى ٠

وفى فندق الشرق بالقـــــاهرة وفنـدق أوروبا بالاسكندرية كان الأوروبيون يمارسون حياتهم وتقاليدهم كما لو كانوا فى أوروبا تماما ٠ وعلى مسارح القاهـــرة والاسكندرية كانت تعرض الأوبرات الايطالية والكوميديات الفرنسية بالاضافة الى مسارح الهواة ٠ وقد ورد فى كتاب ثاكرى « ملاحظات عن رحلتى من كورنهيل الى القـــاهرة العظمى » قائمة المأكولات الانجليزية التى كانت تقدم فى فندق الشرق بالأزبكية ، ويقـــول أنه على الرغم من أن الطعام الانجليزى أضاع المسحة الرومانسية للمأكولات الشرقية الا أنه كان مريحا للمعدة ٠ بعد ذلك يخرج ثاكرى بقلمه خارج الفندق ليصف لنا شوارع القاهرة الرئيسية ٠

ويقول لورد لندساى فى عام ١٨٣٦ أن الفنـــادق الانجليزية فى الاسكندرية والقاهرة وكذلك العـــوامات والذهبيات النيلية كانت تقدم كل وسائل الراحة والترفيه؛ ولذلك أقبلت السيدات الانجليزيات على قضاء الشتاء فى طيبة كما كن يفعلن من قبل فى باريس وروما ٠ وقـــد تراوحت وسائل الراحة والترفيـــه بين حفلات الموسـيقى الكلاسيكية وحفلات الرقص من فالس وخلافـــه وندوات ثقافية وجلسات سمر ٠ وفى عام ١٨٣٦ أنشأ دكتـــور وولن « الجمعيـــة المصرية » بالقاهرة التى ضـــمت فى عضويتها الشرفية علماء أمثـــال لين وويلكينســون ولورد

برودهو وهاميلتـون وروسـيلينى ولابورد ودكتـور جليدون ٠

وكان من ضمن المهام الملقاة على عاتق الجمعية تنظيم الرحلات الثقافية للقـادمين من الغرب ، وجمـع كل المعلومات الممكنة عن مصر ؛ ومد الأعضاء والرحالة بمكتبة تشمل كل الكتب المفيدة التى كتبت عن مصر وبالاضافة الى هذه المكتبة فقد قام الرسام الفرنسى الشـهير بريس بانشاء مكتبة جديدة بالقاهرة عام ١٨٤٢ لنشر الأعمـال التى تدور حول مصر ، ولربطها بالجمعيات الثقافيـة والأكاديمية فى أوروبا والعالم ٠

عندما يتحول الحب الى دراسة

ولأن العقلية الغربية تتمسك بالمنهج العلمى والتفكير العملى ، فقد ترجمت حبها لمصر بدراسات عديدة لتعريف العالم بهذا البلد الساحر الغامض ، منها مثلا « منـاظر شرقية ومصرية » لهيد ، و « مصر » لراسل و « عـادات وتقاليد المصريين القـدماء » لويلكينسون و « المصريون المعاصرون » للين ٠ وكانت هذه الدراسات دعوة للرجل العادى لمعرفة البلد الذى منح الحضارة الانسانية للعالم كله منذ فجر التاريخ ٠ وفى عـام ١٨١٣ كتب الشاعر بايرون الى الروائى مور يؤكد له أن الشرق عامة ، ومصر خاصة هما المكان الوحيد الذى يوحى بالشعر الأصيل ٠

وهو الاتجاه الذى آمن به معظم شعراء القرن التاسع عشر فى أوروبا ٠

ولم تعد معرفة الأوروبى للشرق بقاصرة على ألف ليلة وليلة بل امتدت لتشمل شعراء العرب وعلماء التاريخ والجغرافيا وكل هذا بسبب السحر الشرقى الذى طغى على أعمال بايرون ومور وساوثى ووليام جوتر وادوارد وليام لين الذين ساهموا بقسط وافر فى دعم حركة الترجمة من اللغة العربية بالذات الى اللغات الأوروبية ٠

وفى عام ١٨٥٣ كتب جيمس أوجاستس سان جون كتابه « ايزيس » وحاول فيه اتخاذ اتجاه مغاير عن ذلك الذى اتخذه لين ، فيقول ان سحر المناظر الطبيعية والمناطق التاريخية فى مصر لا يكمن فيما نراه فعلا بالبصر ، ولكنه ينبع مما لا تراه سوى البصيرة ، فمصر هى البلد الروحانى الذى تحسه وليس ذلك المكان المادى الذى تلمسه فالتقارير التى تصف وتحلل وتفسر لا يمكن أن تغنى عن التجربة الشخصية بما تثيره من احساسات فريدة ٠ ولذلك نجد ثاكرى يصرخ عندما رأى الأهرامات لأول مرة ، انه رآها قبل ذلك بعين البصيرة ، فالتجربة روحية أكثر منها تجربة حسية ٠

بعد ذلك أصبحت تقارير الرحالة عبارة عن وصف تفصيلى للأحاسيس والمشاعر التى تثيرها فيهم المناظر التى

تقع عليها أعينهم فى مصر ؛ أكثر من الوصف التفصيلى لهذه المناظر بالفعل . وبذلك نستطيع القول بأن التقارير والدراسات انتقلت من الموضوعية المحايدة الى الذاتية المنفعلة . ولعل هذا التحول يرجع الى أن التقارير السابقة والدراسات التى نتجت عن حركة الاستشراق قد قامت بالوصف التفصيلى لمعظم المناظر الطبيعية والمناطق الأثرية بحيث لم تترك كثيرا لمن جاء بعد ذلك . ولذلك أصبحت المتعة فى تسجيل الهزة النفسية التى يستشعرها القادم من بلاد الغرب .

سحر الشرق

وتمثلت كتابات القادمين بعد ذلك فى البحث عن سحر الشرق الكامن فى روحه الغامضة وليس فى مجرد وصف ما يرونه ، وقد شجعهم على هذا فكرتهم المسبقة عنه والمشبعة بروح الأساطير وليالى ألف ليلة وليلة ، وكذلك التماثيل والآثار التى تتحدى الزمن والمآذن والمساجد التى تسبح بحمد الله ليل نهار فالوجود كله يتحول الى حلم ساحر لا يريد السائح أن يفيق منه . ولعل هذا الاحساس الحاد بالشرق مرجعه الى التناقض الواضح بين الغرب والشرق . فالأوروبى يجد نفسه وقد انتقل فجأة الى عالم آخر مختلف تماما مما يجعل التجربة النفسية التى يمر بها ذات أبعاد وأعماق متعددة وخصبة.

ويقول الرحالة كينجليك أنه أتى الى القاهرة لا لكى

يصمها ولكن لكي يستمد منها زادا روحيا يعينه على رحلة الحياة . وتفس الوضع نجده بالنسبة لووربيرتون الذى يقول ان تمسكه بالحياة السريعة الصخبة فى الغرب لم يمنعه من التمتع بروح السحر والهدوء والسلام والدعة التى تشع من مصر ، وهى الروح التى منحته الفرصة لكي يتحول الى أديب وشاعر يصنف كل ما يراه بعين الخيال ويمد جريدته بكل ما من شأنه أن يسحر جمهور القراء . ويقول مايلنز ان امتزاج روح الشرق بعقلية الغرب هو المنبع لا للالهام فقط ولكن للخلق الفنى بكل صوره . بينما يقول لورد لندساى أنه لا توجد متعة فى العالم أروع من الاحساس بأنفاس الشرق عندما تحيط به ، وكذلك بايل سانجون الذى يبحث عن السعادة فى الحياة بين فلاحى الوجه القبلى وفى المناطق الأثرية التى تقع شرقى البحر المتوسط .

ولم يقدم هؤلاء صورا بقدر ما قدموا من وصف دقيق للأحاسيس التى أثارتها مصر فيهم . ولم تكن دراستهم لمصر دراسة المؤرخ أو الجغرافى ولكنها كانت دراسة الباحث عن الجديد والغريب والنائى والرومانسى بما يثيره من أحاسيس جديدة وغريبة . ويقول جورج فيسك الذى زار مصر عام ١٨٤٢ أن ما قرأه فى انجلترا من خلال حركة الاستشراق ، كان مجرد أفكار ، ولكن فى مصر تجسدت الأفكار أمام عينيه ونبضت بالحياة ، التربة الرملية ، والأماكن المقدسة المتطلعة الى السماء ، والأشجار

النخيل ، والسماء الزرقاء الصافية التى تومض فى الأفق • كل هذا يجعل الانسان يعيش أحلام اليقظة التى داعبت صباه ، وما أمتع أحلام اليقظة عندما نعيشها بالفعل •

نفس الكلام يقوله جون كينيار الذى زار مصر عام ١٨٣٩ ، فيؤكد أن مصر تجسيد لمجموعة من المشاعر الممتعة التى كانت تراوده فى أحلامه المبكرة ؛ ولذلك نجد كثيرين ممن جاءوا الى مصر وقد تحولوا الى شعراء مثل ريتشارد فولكتون مايلنز الذى كتب عام ١٨٤٢ قصيدة بعنوان « روح مصر » وفيها قال أن الزائر قد تغيب عن ذاكرته المناظر التى رآها وذلك بعد أن يعود الى بلده ، ولكنه لن ينسى الأحاسيس التى أثارتها داخله ، فستظل تلازمه كقطعة نابضة منوجدانه حتى نهاية رحلته فى الحياة وأهم تلك الأحاسيس هو احساس السلام والوئام والدعة والراحة والطمأنينة والمتعة الروحية الصافية التى لم تتعكر بعد بفعل أدران الحياة المادية •

هذا وقد تجسد سحر الشرق فى نظر معظم الوافدين فى الخيمة التى تحتوى فى داخلها على كثير من أحلام اليقظة وتطلعات الروح ، والجلسة الشرقية أو التركية بما تحمله من راحة والانطلاق ودعة ؛ والقارب العربى الذى يطفو مع أطياف الخيال ، وأشجار النخيل السامقة والأهرامات التى لم يقدر عليها الزمن • وكل ما كان يهم هؤلاء الوافدون هو احساس السعادة والبهجة والنشوة الذى تثيره مثل

هذه الأشياء : قرية نائية ، أو مسجد أثرى ، أو معبد فى الصحراء أو مقبرة مدفونة فى الجبل ، أو صومعة ناسك ، أو طريق محاط بأشجار الاكاسيا ذات الأشواك ، أو كهوف النيل ·

ولكن هل كانت مصر مجرد حلم من الأحلام وطيف من الأطياف أم كان لها من الواقع الصلب ما يجعل حقيقتها فوق كل خيال ؟! ·

— ٥ —

كتب اليستر كويللر كوتش فى مقدمته لكتاب كينجليك « ايوثين » التى كتبها فى بدايات القرن العشرين أن سيطرة الارادة الغربية على الحضارة الشرقية هى شيء طارىء ومؤقت بينما نجد أن تأثير الحضارة الشرقية على المدنية الغربية يمتد الى جذورها الأولى حيث يمنحها الحياة والاستمرار · ولذلك فكتاب « ايوثين » يصور لنا هذه العضوية بين الشرق والغرب فى أسلوب أخاذ وصورة صادقة وسرد حى ·

وكان الكسندر وليام كينجليك قد سجل انطباعاته عن السياحة التى قام بها فى منطقة شرقى البحر المتوسط عام ١٨٤٤ ، وقد جمعت هذه الانطباعات ما رآه بعين الحقيقة وما انفعل به بعين الخيال · وخاصة فى تلك التى

أثارها التناقض بين واقعية الغرب وماديته وبين رومانسية الشرق وروحانيته . وقد علق ووربيرتون على كتـــاب صديقه بقوله أن الرحالة الذين ســـبقوا كينجليك قد كتبوا وصفا للشرق أما هو فلم يهتم بوصف أســـواق القاهرة والأهرامات وخلافه بل ركز على الجـــو الغريب المختلف الذى توحي به مصر اذا قورنت باوروبا . فبدلا من أن يقدم القاهرة مثلا من خلال رؤيته نجده يبـــلور رؤيته من خلال القاهرة وهكذا ، فالذى يهم هو العـــالم الداخلي للكاتب كانسان وكيف ينفعل بالعالم الخارجى ، أكثر من أن يتحول الكاتب الى مجرد مرآة صماء تعكس الواقع الخارجى ولا تستطيع هضم معانيه واســـتيعاب أبعاده . وهذا ما أسماه رحالة هـــذه الفتـــرة بالنظرة الرومانسية الى الواقع الشرقي بعد أن كانت النظرة واقعية الى رومانسية الشرق .

ولم يهتم الكتاب والرحالة من أمثـــال كينجليك بمجرد الاختـــلاف بين الشرق والغرب بل تطرقوا الى التناقض الحاد بينهما . بالطبع كان كينجليك يمثل فى هذا الأوربى العصامى الذى لا يتوقع مساعدة من أحد بل على استعداد لتقديمها الى أى انسان . فهو يعتبر نفسه محور العالم ومركز الكون وكل ما حوله يدور فى فلك كيانه ودائرة انطباعاته الشخصية وهذه الذاتية المتضخمة طبعت كتابات كينجيليك بطابعها الفردى بحيث نراه فى كل فقرة من فقرات الكتاب ، فهو يجوب الصحراء بمفرده

بلا وجل ، والكبرياء تحيطه من كل جانب بهالة من القوة والاعتداد بالنفس واللامبالاة والوحدة والعزلة ، ويدخل في مأزق ليخرج منتصرا استعدادا لمحنة تالية وهكذا ولكنه ينتصر فى نهاية كل موقف · ونجده يشق طريقـــه فى الصحراء بمفرده حتى يصل الى السويس دون دليـــل · ويحدث أن يقابل فى الطريق صبيا هاجمه قطاع الطرق وأتوا على كل ما معه فيسرع بشراء حمار له حتى يواصل رحلته ·

وأثناء الرحلة يصف كينجليك كل ما يقابله من خلال نظرته الخاصة ابتداء من البشوات حتى النــــاس العاديين فى الشوارع · وعندما ينتشر وباء الطاعون فى القاهرة نجده لا يعبأ بالعدوى بل يتحدى كل الاحتياطات الصحية كما لو كان محصنا ضده · فقد جاء لكى يختبر الحياة بكل أبعادها لا لكى ينزوى فى ركن قصى من المدينة الكبيرة خوفا من العدوى ·

مصر بين الواقع والخيال

وفى كل هذا يمتزج الواقع بالخيال ، والموضـــوع بالذات ،والمجموع بالفرد ، بحيث يصعب علينا التفريق بين هذا وذاك · فكل المغامرات الرومانسية التى خاضها الكاتب بروح التحدى كانت تنتهى دائما على أرض صلبة من الواقع المألوف فمصر هى البلد الوحيد الذى يمكنه الجمع بين الخيال والواقع فى توليفة عضوية رائعـة بحيث

يختلط الأمر علينا عندما نحاول وضع حد فاصل بين شطحات الخيال وقيود الواقع . ولذلك كان كينجليك حريصا دائما على الهبوط الى أرض الواقع حتى تزداد مقدرته على اقناع القراء بأن ما يكتبه صادر عن تجربة عملية وليس مجرد فكرة خيالية . فيقول أنه أراد الهبوط بالشرق السارى بين الأطياف الى أرض الواقع ، وما الأهرامات فى نظره الا أشياء مادية ملموسة صنعها الانسان المصرى بعرقه وجهده ، واذا كانت تسمو فى بعض الأحيان الى عالم الخيال الرومانسى فهذا دليل على عظمة الأهرامات نفسها ، رغم أنها توحى بالرغبة العظيمة فى اختراق المجهول والتعرف على عالم ما وراء المادة .

هكذا كان الرحالة يربط دائما بين الحقيقة الواقعية وانطباعاته الشخصية ، فان ما يراه قد يبدو رومانسيا ولكن نابع أساسا من الواقع الذى يعيشه . وفى هذا يقول اليوت ووربيرتون فى كتابه « الهلال والصليب » الذى كتبه عام ١٨٤٥ ان مصر هى الارض الرومانسية المثالية لأن الأوروبى يجد فيها ما يفتقده فى بلاده . فاذا تنازعتك عوامل الطموح والكراهية والصراع ، واذا اعترض قارب حياتك كثير من الأعاصير ، واذا نهش القلق والأرق حياتك ، فعليك بالذهاب الى أرض النيل ، هناك ستجد السلام والحب والطمأنينة والاستقرار والدعة والسحر الذى قرأت عنه فى كتب الطفولة والصبا . ويصف ووربيرتون هذا السحر من خلال رحلة نيلية فيقول :

« على أمواج النيل المضاءة بأشعة القمر الفضية انساب القارب في سحر مبهم لا يمكن وصفه : كل شيء ناعم ، كل صوت هو الموسيقى بعينها ، كل نسمة معبأة ببخور لم يصنعه انسان • والأضواء البعيدة المترامية الخافتة تومض هنا وهناك بين المآذن المحيطة بمدينة القاهرة ، والأصوات الهامسة تحملها النسمات من حين لآخر • يقطع هذا الصمت صوت أبو قردان أو سمكة تقفز على الطسح لتختفى فى لمح البصر ، بعد ذلك يزداد السكون عمقا كأنه سكون الأبدية كل الطبيعة تبدو سابحة في بحار من النشوة ، والعالم كله يفنى مادته فى أطياف الاحلام حتى يصعب على الانسان أن يتعرف على ذاته • نحن لسنا فى حاجة لننام حتى نحلم • ففى مصر يتحول الحلم الى واقع والواقع الى حلم » •

بلاد السحر والشعر والجمال

هكذا لم ير الرحالة من أمثال وورببرتون فى مصر سوى السحر والشعر والجمال ، لكن وراء هذه الأحاسيس يكمن نبض عملى يجسد الرغبة فى العودة الى حياة العمل والصراع ، فالسائح والمغامر لم يتعود هذا الايقاع الهادىء للحياة المصرية • ولا غرو فى هذا فانه لا يستطيع أن ينسى بيئته الاولى بهذه البساطة وهى بيئة تختلف بل وتتناقض مع البيئة الشرقية • ولذلك فان الجانب الآخر للصورة يبين لنا اعتزاز الرحالة بموطنه ، ولذلك يقول وورببرتون انه

على الرغم من جمال المرأة المصرية وسحر عيونها السوداء وفتنتها الغامضة فانه يفضل عليها المرأة الانجليزية التى خرجت الى الحياة وتركت عصر الحريم خلف ظهرها ، فاذا كان الحجاب يثير كثيرا من التطلع والتشويق الا أنه يمثل عقبة فى سبيل التطور الانسانى للمرأة المصرية ٠

وهناك كثير من اللمحات الواقعية التى تبتعد كثيرا عن مجرد الانفعال الحماسى ، فنجد مثلا فى كتاب ثاكرى « ملاحظات عن رحلتى من كورنهيل الى القاهرة العظمى » تأكيدا على أن الخيـــــال قد لعب دورا فى تزييف النظرة الواقعية لمصر بكل جوانبها ، فلم يعد الوافدون يرون سوى ما يرغبون فى الاستمتاع بمشاهدته ، أما الجوانب السلبية الأخرى فلم تكن تعنيهم في كثير أو قليل ٠ ولذلك فان من يقرأ قصيدتى شيللى عن مصر يشعر بكثير من الهالات الرومانسية التى يضيفها خيال الشاعر بصرف النظر عن الواقع ٠ ولذلك يفضل ثاكرى النظرة الموضوعية فيقول ان السياح والرحالة أنفسهم قد أفسدوا سحر مصر بنقل عاداتهم وأساليبهم التقليدية معهم الى مصر ، فلم يكن هناك فرق بين فنادق القاهرة والاسكندرية وفنادق لندن وباريس من حيث المأكولات والحفلات ٠ ولذلك يؤكد ثاكرى أن سحر القاهرة كامن فى شوارعها وسكانها بعيــــدا عن المظاهر الأوروبية المزيفة المميزة للأماكن السياحية كالفنادق مثلا ٠

ولكن التقارب الشديد الذى حدث بين مصر وأوروبا

بعد ذلك ؛ قد نتج عنه أن كادت مصر أن تفقد طابعها المميز وتتحول الى صورة مكررة لأوروبا . ولعل هذا هو السبب فى أن السياح والرحالة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لم يجدوا الكثير لكى يسجلوه ويكتبوه. فقد فقدت مصر معظم رومانسيتها بسبب التطور الذى حدث نتيجة لازدياد أهميتها كطريق موصل الى الهند ، وأيضا لافتتاح قناة السويس

الأسلوب الجديد لأدب الرحلات

وقد فشل كتاب أدب الرحلات فى العثور على جوانب جديدة من شأنها أن تثير القارىء ، ولذلك لجأ معظمهم الى المبالغة لجذب انتباه القارىء الى أهمية ما يكتبون . وكان معظم ما كتب فى هذه الفترة أقل كثيرا فى مستواه عن الكتب الأصيلة التى صدرت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . بل حاول بعضهم النظر الى مصر فى كبرياء واستعلاء على أساس أنهم جاءوا من بلاد الحضارة الجديدة. فنجد فى كتابات المسز دامر وماريان بوستانز التظاهر بأن كل ما تحويه مصر لا يخرج عن نطاق الغرابة التى تشاهد لمجرد التسلية أو من باب العلم بالشىء .

وحاول البعض الآخر ربط القاهرة بما قرأه فى ليالى ألف ليلة وليلة حتى ولو لم يكن يمت بصلة اليها . فنجد فى احدى الكتب وصفا لحى بولاق كما لو كان وصفا

لأحد أحياء بغداد أيام هارون الرشيد • وهذا هو الاتجاه الذى كان يميل اليه معظم السياح الذين ينقصهم عمق الدارسين والرحالة •

والكاتبان الوحيدان اللذان ينتميان الى التقاليـــد الأصيلة التى سادت النصف الأول من القرن التاسع عشر كانا بايل سان جون ولوسى دف جوردان ، وقد عاش الاول فى القاهرة فى الفترة ما بين عام ١٨٥٠ وعام ١٨٦٢ • وكان ابنا للمستشرق الكبير جيمس أوجاستس سان جون الذى عاش فى مصر فى الثلاثينات من نفس القرن وقد عاش بايل مع أسرة مصرية بالاسكندرية وكتب حيـاته معها فى كتاب ناجح نشر فى باريس عام ١٨٥٠ بعنوان : « عامان من العيش مع عائلة ســـــكندرية » وفيه قدم بانوراما عريضة لحياة الاسرة المصرية فى شــــخصيات الست ما شاء الله والست صوفى والخواجا حنا والفتـاة وردة التى وقعت فى حبه •

أما لوسى دف جوردان فقد عاشت فى مصر بين عامى ١٨٦٢ و ١٨٦٩ على سبيل الاستشفاء وبحثا عن الدفء • وطبعت خطاباتها فى مجلد عام ١٨٦٥ ثم أعيد طبعها عام ١٨٧٦ بمقدمة كتبها الروائى الانجليزى الكبير جـــورج ميريديث وفيها أوضح أن روعة هذه الخطابات تكمن فى أنها كتبت بتلقائية عذبة بعيدا عن روح التصنع والتكلف ، ولذلك فان روح مصر العريقة تنبض من خلال كل كلمة خطتها لوسى فى هذه الخطابات التى لم تكن تقصد نشرها

أساسا · ولذلك فان التجربة الحية التى عاشتها لوسى بكل أبعادها قد انتقلت الى القارىء · وفى هذه الخطابات تتحدث لوسى عن الحب والطيبة والوداعة والبراءة التى تميز المصريين بصفة عامة ، وتؤكد أنها لم تجد فى حياتها خامة انسانية أنقى من الشخصية المصرية ، وعندما تدهورت صحتها فى أواخر أيامها كتبت الى زوجها خطابا تقـــول فيه : انها على الرغم من انتظارها للمنية فى بلد غريب ، الا أن مصر بروحها الساحرة قادرة على أن تحتـوى كل الناس على اختلاف مشاربهم وجنسياتهم كما لو كانوا أبنائها دون تفرقة · ولا عجب فى هذا فان مصر هى أم الحضارات الانسانية كلها ·

وتموت لوسى دف جوردان فى مصر قريرة العين لأن روحها امتزجت بنفحات مصر الخالدة · فهى البلد الذى لا يشعر فيه الانسان بالغربة واللا انتماء · كل النـــاس أهل وأخوة حتى الغريب القادم بمفرده · هـكذا كانت وستظل مصر : أم الحضارات ومنبع الروحانيات وقبـــلة لكل الشعوب على مر العصور ·

د. نعمات أحمد فؤاد

مصر والأديان

إن مصر بلد الايمان على الرغم من أنها غيرت شكل دينها عدة مرات ولكن جوهر الدين في قلبها واحد عبر الاخناتونية والمسيحية والاسلام ٠٠ وهو « توحيد » يتمثل في وحدة الله ووحدة الوجود ٠

الحس الديني الذي يحتويه كيان المصرى ، سواء في هذا : اخناتون وسانت أنطونيوس وابن الفارض ٠٠٠ ان سانت أنطوني يمثل روح المعبد المصرى بلا حجر أو جدار ٠٠٠ وقد نفذ الى هذا الدكتور أحمد بدوى في كتابه (في موكب الشمس) فقد أدرك الوجود الديني في الوثنية المصرية ٠٠ وفي المجرد الاسلامى ٠

جاء في متون الاهرام :

(ان الملاح السماوى لا يسمح بالعبور الا للصالحين والعادلين) ٠

وفى القرآن الكريم : (**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين**) ٠

وجاء فى متون الاهرام :

(اننى لم أدنى فمى بإهانة من أهاننى) ٠

وتلك روح مسيحية ٠

وجاء فى متون الاهرام أيضا :

ـ (قل الصدق وافعل ما يرتضيه) ٠

ـ (العادل لا يأخذ اللبن من فم الرضيع) أى لا يظلم ٠

لقد دعا « اخناتون » الى التوحيد واحتفظ بمعان رمز الحق والعدل والخير ٠٠

وحذف « اخناتون » لقبه الملكى ووضع بدلا منه : (العائش على الصدق) ٠

يقول المسيح :

« أنا الحق والطريق » ٠

وفى مصر القديمة كان أوزوريس هو الحق ، وهو على حق ٠٠ وهو الخير والخصب ٠

ان ما بين أوزوريس والمسيح ليس تطابقا كاملا ٠ ولكن :

كان أوزوريس الحق والطريق

وكان المسيح في عصره ، الحق والطريق .

ثم كان محمد بشريعته بعد هذا ، الحق والطريق .

تواكبت على هذه الأرض القيم والمعاني والأديان ...

ولهذا استطاعت مصر أن تحقق معنى الاسلام . منذ انفتحت مصر للأديان السماوية بعد أديانها هي ، تحرك فيها الوعي الخلاق للقيمة فأعطت المسيحية ما أعطت .

وبعدها أعطت الاسلام ما أعطت .

لقد حارب أبو جهل محمدا لاحساسه بخطره عليه . كان يقاوم شعوره به ، يحربه ... حاربه من شـدة احساسـه بتفوقه هذا التفوق الذى يهدده ويهـدد مصـالحه .

هذا عمر على شدته برىء من العنجهية فلم يتردد فى السعى الى محمد حين استشعر صدقه .. حب عمر للحق تبدى بعد هذا فى اسلامه .. وفى خلافته وسلطته .. هذا الحب للحق سهل عليه ، ومعه أن يسلم وان يسلم .. لم يقاوم الحق بل اعتنقه ...

هذه رؤية الحق ...

ومصر حين انفتحت للأديان كانت تملك هذه الرؤية .

لم يكن ايمانها ايمان العجائز ... ولكن ايمان الشباب ... شباب النفس .

ان المسيحية والاسلام تحقيق لأمل : الجزء الصادق. فى الوثنية .

ولم يكن ايمانها ايمان التبعية والضعف بل ايمان الشخصية وقوتها ... فمن قوة الشخصية ألا تخاف الجديد لأن ما عندها كبير راسخ .. ومن السماحة وقابلية التطور ومرونة الادراك ، أن تدرس الرأى الآخر وتنفذ اليه فاذا اقتنعت به تقبلته دون جمود .. واذا تقبلته نمت به **ونمته وطورته وأعطته ...**

وبهذا استمر دورها على المسرح فلم تسقط الأضواء من على قسماتها أبدا .. فقد خرج من هذا التراب أشخاص حققوا معنى الدين فى المرحلتين المسيحية والاسلامية .

سانت أنطونيوس خلفه أبواه الثريان ولم يتم العشرين سمع بضميره المصرى قول المسيح :

(بع أملاكك وتصدق بها على الفقراء واتبعنى) .

لكأنها موجهة الى شخصه فسمع نداءها ... باع وأعطى تحنف فى « البريا » ثلاثين عاما صفى فيها جوهره .

استجاب مرة أخرى لقول المسيح «الملك فى القلب» فكانت حياته للخلوة والجماعة فى توازن فريد .

والخلوة والجماعة دعامتان من دعائم **الشخصية المصرية** . ان تراث مصر فيه روح الخلوة وروح الجماعة . فيه أنس الخلوة وايناس الجماعة .

وهى احـدى الظاهرات التى تبدو متناقضـة وهى متسقة تمام الاتساق ٠

أبو الهول ·· تمثال زوسر ·· خفرع ·· أعمال فنية تجمع بين انس الخلوة وروح الفريق ··

وذو النون يقول : ليس من احتجب عن الخـلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله ···

وهو هنا يريد : ان الخلوة ليست الخـلاء والفراغ ولكنها الاشتغال بالنظر والتفكير ···

وقبل سانت أنطونيوس ، وذو النون ، احتجب الفن المصرى عن الناس بالنقاء والسموق ، محتجب بسمته ·· موصول بما حوله بما يجذب الكل اليه ···

ثم جاءت المئذنة خلوة تدعو الى الجماعة ··· حين تدعو صلاة الجماعة الى الخلوة (**اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله ·· فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض**) ·

ثم بليت مصر باليـونان ومنيت بالرومان فتـوارى أسلوبها فى الحياة ··· وانحطت الحياة فآضت مصر الى الصحراء احتجاجا على مجتمع المدينة ··· ولم تركن فى الصحراء الى الراحة أو الخمول بل نشرت الأديرة فكان الدير مسـتعمرة زراعية صناعية لسـد جميـع حاجات أفراده ·

تقول Eveline underhill وهى ممن كتبوا عن آباء الصحراء كتابة وافية ، ما فى دير فى مصر الا ويحرم البطالة على الرهبان أشد تحريم بل كانوا يوزعون صدقات كبيرة على الفقراء خاصة فقراء ليبيا الذين تفتك بهم المجاعة ، كما كانوا يوزعون الصدقات على نزلاء السجون بما فى المسيحية من عطف على المخطىء ...

وهنا يقول يوحنا (ان السماء المتلألئة بنجومها الزاهية العديدة لا تدهشنى رؤيتها الا قليلا بعد أن تطلعت الى قفار مصر ملأى بالرهبان) .

واذا عرفت مصر الخلوة والتأمل والغوص فى أعماق الحياة والنفس نفذت الى معان كبيرة . يقول الأب مكاريوس (داخل النفس البشرية بذرة اذا أحسن رعيتها نمت .. واذا نمت طرحت الايمان والتجرد والمحبة والاتضاع النفسى) .

من رأى مصر أن الانسان يجب أن ينمو تدريجيا فى الحياة الروحية التى هى أعلى درجات الحكمة .

وكما لم يتغذ الجسم من ذاته بل من مصدر خارجى أى خير الأرض ... كذلك الروح لا تتغذى من ذاتها بل تنهل من النبع الأعلى الصافى .. أى الله .

وان حياة الخلوة والجماعة اذا استقامت على أمر جسيم تتيح رؤية الحق فى الآفاق والأنفس ، وتتيح الانتصار على الخوف من الموت .

ان معركتنا الأخيرة **خلوة وتخطيط وتصميم وتدريب ذاتى وجماعى وانتصار على الخوف من الموت** حتى كان البطل يقول لزميله (تعال نفطر فى الجنة) ايمانا بالشهادة فى سبيل قيمة .. كرامة مصر وحقها .

خاضت مصر فى رمضان موقعة شهداء أخرى ، وكما حققت مصر المسيحية عن **طريق الاستشهاد والرهبنة** الجوهر اللازم لكى تتبلور وتتجوهر الشخصية المصرية بعد أن غام عليها اليونان والرومان وغموها ؛ حققت مصر الاسلامية الحديثة عن **طريق الاستشهاد والعمل** ، الجوهر اللازم لكى تتبلور وتتجوهر الشخصية المصرية بعد أن اتهمها اليهود وحاولوا أن يطفئوها بأفواههم وأبواقهم ويأبى الله ودينه ورسله والحضارات وكرائم الانسان .

حضرت مصر لهذا كله فى صمت وصبر . ان الشخصية المصرية انتصار على المحنة وصبر على البلاء لأن بلاء المحنة عارض يزول فيتالق الخالد ... تتألق مصر .

لهذا نجد فى الراهب والمتصوف والشهيد أحسن ما فى الزارع والصانع والفنان المصرى لأن الرهبنة بمعنى زرع النفس واستخلاص الجوهر ؛ حياة ...

والشهادة دفاعا عن نفيس ، حياة .

الزارع والصانع والمجاهد والفنان كل منهم راهب وهب نفسه للقيمة .

والنبى عليه السلام يقول ما معناه : الجهـاد رهبانية الاسلام بما فيه من مجاهدة ٠٠ وما فيه من جلاء النفس بالشهادة ووهبها للقيمة ٠

نفذت مصر الى التوحيد ٠ وحققت مصر فيه بعملها وأسلوبها ما حققت فى غير جلبه أو ثرثرة ٠٠ وهكذا مصر عند ما تملك زمام شخصيتها لا تحب المناقشة والجـدل والسفسطة والهرطقة وانما تحب العمل والتحقيق ٠٠٠ ليس عندها فلسـفة مكتوبة بل محققة ومعاشة ٠٠٠ ان الفلسفة طريقة حياة ٠٠٠ قد يكتب شيء ويعاش شيء آخر ولكن مصر عاشت رأيها بصدق وان لم تكتبه ٠ هى التى ابتدعت « الكتابة » وهى الوحيدة التى جعلت للكتابة الهة « سيشات » من تقديسها للكلمة والحرف الأخضر ٠٠٠ وزوجت الهة الكتابة من اله الحـكمة لاحسـاسها بمـا بينهما ٠٠٠

ان المسيحية فى مصر **استشهاد ورهبنة**

والاسلام فى مصر **تصوف وفن** هو الفن الاسلامى فى مصر ٠

والرهبنة تصوف المسيحية ٠

والتصوف رهبنة الاسلام ٠

وهذا هو دور مصر وعطاؤها ٠٠٠ حتى الأديان حين تعتنقها لا تقف عند الاتباع بل تأخذ دورا بالعطاء والاضافة والتكييف على هدى حضارتها وسابق معطياتها ٠٠

لقد عرف العراق التصوف فاذا فى العراق ينقلب الى شيع وفرق ونحل متعددة ومتعادية ·· ولكن التصوف فى مصر علم ومعرفة على يد ذى النون ·

وقصيد ونشيد على يد ابن الفارض ·

ان التوحيد الذى نفذت اليه مصر قبل الأديان واعتنقته بعد الأديان سر البطولة ·· عند مصر « لا غالب الا الله» ليست تميمه ولكن عقيدة ·

فالله عند مصر واحد ·

والمصرى والطبيعة من نبات وحيوان **كون واحد** فى عملية صفو وصغو الى المعزوفة الكبرى يجود بها المايسترو الأعظم ···

وينفتح القلب ويشرب النغم

وتتوهج الروح اذ تلمسها الشرارة المقدسة ·

ويبصر الانسان بعد أن رأى وتتغلغل روح الدين فى مصر فى كل شىء ··· فالفن بداية الاسرات الطابع الأساسى له ، ادراك القانون الذى يربط الكون ·· الطبيعة ·· يربط الأسلوب الناضج فى الفن ، ويربط القلب البشرى فى علاقاته بالآخرين ··

حققت مصر هذا القانون على مستوى الدولة ·· وحققت مصر هذا القانون على مستوى الفن ·

وهنا يكون الفن المصرى : علامة · ودعامة · ولغـــة مقدسة بما وراءه من وحى وبما فيه من الهنام ·

الفن المصرى كالشخصية المصرية كلاهما يؤمن بمـا طرحته المسيحية فيما بعد حيث قال بستان الرهبان « محبة التعب عون عظيم » وفيه ترجمة لآية القرآن الكريم « **ان مع العسر يسرا** » ·

محبة التعب عون عظيم ليست دعـــوة للارهـــاق والسقوط من الاعياء ولكنها دعوة الى العمل ·· الى تحقيق الرائع والجميل ·· حين يكون الرخاء دعوة الى الاسترخاء

ان مع العسر يسرا ·· انها من معانى الفن المصرى حيث يقترن العسر واليسر بل ينبجس اليسر مع العسر · الفن المصرى فيه خط سهل وفيه خط من أشق الخطوط ·· والخط السهل من (جوا) عسير كل العسر ·

الفن المصرى سهل صعب كما يتأرجح الطيب من حرق العود وكذلك الشخصية المصرية ·

الشعب المصرى يطرب ويضحك ويتفكه فيحسبـــه الجاهل به ، سهلا وهو صعب يستطيع حين يريد أن يأتى بالمعجزات ويركب الصعب حين لا تدل الدلائل من وجهة نظر المراقبين ، عليها ··

ومن القداسة ، الفرح

ومن البشر ؛ ··· البشرية

ومن الدين الرفق والرقة (**ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك**) ·

فى رأيى أن البشر سر من أسرار الشخصية المصرية فهو يغطى بحرا من الهموم ·

من فن مصر وعقيدتها قبل العقائد والاديان : أن يقسم المصريون القدماء ، السنة الى ثلاث فصول لا أربعة يسمونها :

الجمال : ويعنون به الفيضان ولهذا كانت بداية السنة عندهم ١١ سبتمبر ·· والنيل ، من الفيضان ، ملك ·

الخير والعطاء : ويقصدون البذر ·

الحياة : ويريدون الحصاد ·

ان الدين جمال ، وخير وعطاء ، وحياة ·

والدين صحة ايجابية ومن هنا نفهم قوله تعالى :

(**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**)

الصحة عزة ومعزة ·

ليس صحيحا أن انتفاء الحاجة الى طبيب معناها السلامة من المرض ·· هذه صحة سلبية ·

أما الصحة الايجابية فهى عزه ورفعة وشوق وحماسه واستشراف ·

لا يسعد القلب

لا يحرك الذات

الا شوق وذوق ٠

لو أحيينا فى النفس لهيب الشوق الذى يستحيل معه القلب الى جذوه ويستحيل عليه أن يصير رمادا ٠٠ فى محاولة تفوق ٠٠ قد تكون فى العلم أو الأدب أو الفن٠

دين كل عكوف على هدف عظيم

وما أكثر الاهداف التى حققتها مصر المتدينة فى كل العصور ٠

ان الاسلام عندما دخل وأراد أن يصنع شيئا انتقل الى شكل آخر ٠٠ فما أمامه قمة ، ليس عليها زيــــادة لمستزيد ٠

بعض المؤرخين وعلى رأسهم توينبى وشبنجلر يرون ان الحضارة المصرية انتهت وانحسرت موجتها وجاء بعدها مد موجات أخرى ٠

نحن لا نبنى الهرم ولا نقيـم المعـــابد ولا نكتب الهيروغليفية ٠٠ فالتشكيل المصرى من هذه الزاوية مضى شكلا ولكن الاسلوب باق والروح هى هى ٠٠ ففى داخل كل مئذنة مسلة ٠ وما بينهما من اختلاف مرجعه ان المسلة استقامة صريحة حين خلصت لهم الحياة فى واديهم ٠ أما

المئذنة القاهرية فقد ولدت فى ظلال الحروب الصليبيـة ولهذا نجد فى عمارتها مجاهدة من المربع الى المثمن الى الاسطوانة الى الخلوص الأخير الذى ينتهى بالهلال رمز الأمل والنماء والميلاد ٠

أما القبة الاسلامية فهى هرم ترفق الفنان المصرى بعد أن أسلم ، فى بنائه من رفق الدين الجديد فاستدار الخط بعد صلابة وثبات ٠

فى المئذنة كما فى المسلة نزوع مصر الى المثل الأعلى هو لون من التهج الملخمى ٠

لقد كانت مصر « قديما » تسمى كيمه ثم جاء الاسلام فآزرته وأعطته ما جعلها فيه قيمة وقمة معا ٠

انها بلد الكيما والقيمة منذ القدم ٠٠ وكثير من قيمها عاش فى الاسلام مع غناه الثرى بالمثل الرفيعـة والآداب العالية ٠

كرمت مصر الأم ورفعها الاسلام الى ذرى عاليه

وكرمت مصر الزوجة وجعلها الاسلام سكنا وأمنا

واعتزت مصر بالأسرة وأوصى بها الاسلام خيرا حتى أبى عليها التفكك ولو اشركت !

ان من يتأمل حضارتنا على مسار التاريخ يلمح احتفالها الكبير بالباب ٠٠ احتفلت به مصر فى قديمها واسلاميتهـا

من احساسها بما فى الباب من جمع الشمل ٠٠ بما فى الباب من « أسريه » ٠٠ يقفل على أسرار ، ويفتح على لقاء سعيد ٠ وبعض الفرق الاسلامية تسمى العالم ، الباب ٠ فهو يفتح للطالب دنيا العلم ٠٠ والخليفة العثمانى سمى الباب العالى تعظيما ٠

لقد كرمت حضارتنا الباب بنقشه وتحليته ٠والزخرفة خبرة ملونة ٠

ان ما فى حضارتنا من زخرفة ونمنمة ووشى قد تحمل على الفراغ الآمن والغنى الواجد ولكن الكثير من آثارنا الاسلامية خاصة ، صيغ ومن حوله الحروب الاسلامية !! ٠٠ قلق خارجى وضيق داخلى من الازمات والمجاعات والأوبئة ومع هذا كانت فى داخلهم (مينا) ترسو عليها آلامهم وتهدأ ٠٠ وتنصهر الفحمة وتصير جذوة متوهجة يتحول الحجر الصخر فى ضوئها الى حجر كريم ٠ ويشرق شارع المعز بالروائع من صنع الصابرين الأقوياء (بالقدرة) ، الموهوبين بالوراثة ٠

هذه « المينا » عمرهـــا ، فى مصر ، منذ القدم : **الفن والدين** ٠

سيد الباز

أزمة الإنسان المصرى

عندما يذكر لفظ « الأزمة » يتبادر الى الذهن الأزمات الكثيرة التى يعانى منها شعبنا ، ازمة السكن والارتفاع الفاحش فى أثمان أراضى البناء ، وخلو الرجل ؛ أزمة المواصلات وانحشار الناس فىوسائل النقل الى حد الاختناق مما دفع بعضهم الى اعتلاء أسطحها معرضين حياتهم للأخطار كما نشاهده الآن • أزمة مرفق المياه وتلوثها أو عدم بلوغها الطوابق العليا حتى أو السفلى الا بشق الأنفس ؛ أزمة مرفق المجارى الذى بلغ حد الانهيار وأصبح يهدد الصحة العامة ، أزمة توفير الأماكن لمن هم فى سن الدراسة ، الخ •• الخ ••

وليست هذه هى الأزمة التى أقصد فالأزمة التى أعنيها ليست وليدة اليوم ولكنها مرتبطة بوجود الانسان المصرى وطريقة تفكيره وممارسته للحياة ، يقول الاطباء ان ثلاثة

أرباع الشفاء يكمن في صحة التشخيص والتشخيص الصادق لما نحن فيه اليوم ؛ يجب أن يحدد الأزمة بدقة ، حتى لا تتشعب به السبل ويتوه في السراديب ؛ ولست أتصور أن مشكلتنا الحالية هي مشكلة اقتصادية بالدرجة الأولى ، أي ليست أزمتنا الفقر وقلة الموارد ؛ فلدينا الموارد ، قد لا تكون بالدرجة الكافية ولكنها أفضل من غيرها ؛ ثم اننا نمتلك أعظم مورد وهو البشر ، وهذا المورد وحده جعل من اليابان التي تستورد طعامها من الخارج ثالث دولة صناعية في العالم ، واستطاعت أن تعيد بناء نفسها بعد الحرب وتبني صناعتها الى درجة تبرز فيها صناعة الدول التي انتصرت في الحرب نفسها ، أريد أن أقول أن حل أزمتنا لا يتأتى بزيادة الانتاج القومي مثلا ، أو تنظيم الأسرة ، أو ارتفاع الدخل ؛ أو تخفيض الاسعار فقط ؛ لا يكفي هذا وحده ، ولا يكفي أن تقوم الحكومة وحدها بحل أزمتنا ، فلا يمكن أن تصلحها أي حكومة بمفردها ، ولا أي جهاز تخطيط بمفرده ، ولا قروض أو معونات بمفردها ، لا يصلح أبدا أي حل جزئي ، ولا يوجد سوى طبيب واحد يمكنه أن يعالج هذه الأزمة ، هذا الطبيب هو الشعب نفسه وكله ، بكامل هيئاته وحكمته وعقله ،ولكن ما هي الأزمة ؟! .. الأزمة هي في غياب الحرية ، ولست أريد أن أدخل في حوار لن ينتهي مع البعض مهما أقمنا الأدلة والقرائن على صحة ما نقول ، وسوف نجد اجابة جاهزة لدى البعض الآخر عن أسباب غياب الحرية لايقبل

فيها المجادلة ولا المناقشة ، كأنها الحق الوحيد الذىلايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أقول ليست هـذه الصفحات مجالا لهذا الحوار ، انما أريد هنا أن أحـدد مفهوم الحرية الذى أعنيه ، وعلى من تقع تبعة ممارسة الحرية وجعلها واقعا حيا ؟! ولا أريد أن أدخل كذلك فى حوار نظرى حول الحرية ، انما سأضرب مثلا حيا يعبر أبلغ تعبير عن الحرية ، ذلك المثل هو المعارضة ، فنحن نعرف أن لا أحد مصيب كل الصواب ، ولا أحد مخطىء كل الخطأ ، وهذا يجعل حاجتنا ملحة وماسة الى معرفة أكبر قدر ممكن من وجهات النظر الاخرى ، ثم نضعهـا على بساط البحث ، لنختار منها ما يزيد حظنا من الصواب، وما يقلل نصيبنا من الخطأ ، ان غياب المعارضة ، يعنى فى نفس الوقت غياب الحرية ، حتى حين تكون الحـرية ماثلة ؛ وأسبابها متوفرة ، فالحرية ؛ ليس المهم وجودها بل المهم استخدامها .. فهى وسيلة لتحقيق التقدم ولقد دلتنا حوادث التاريخ المتعاقبة ، أنه حيث توجد حرية الكلمة وحق المعارضة ؛ يوجد دائما وحتما ، استـخدام الحرية فى كل مجالاتها ، وأين هى المعارضة فى أمتنا ، ان الصمت خيم على حياتنا ، وأصبح شعار المواطنين «ليس فى الامكان أبدع مما كان » ؛ ارتبطت المعارضة لدينـا بالهدم ، فكل من يحمل لواء المعارضة ليس هناك أقرب من اتهامه بأنه صاحب دعوات هدامة ؛ ورجعى ، ويمينى ، ومحافظ ، وتقليدى الخ متناسين أن المعارضة الشريفة

هى خير وقاية من الهدم ، ان للهدم طبيعته ووسائله ، وليست المعارضة هى وحدها التى تحمل ارادة الهدم ، نعم قد تتوسل بها أحيانا ،ولكنها ليست دليلا عليها فالمعارضة لا تهيىء للهدم الا تلك النظم التى فقدت دواعى بقائها ، واستمرارها ، ولكن من المسئول عن وجود الحرية هل هم والمواطنون فقط ، أقول ، وبغير تردد نعم ، المواطنون ولا أحد سواهم ، وعليهم تقع المسئولية الكبرى فى المناداة بالحرية وجعلها واقعا حيا ؛ ولكن اليس للحكومات دور فى ذلك ، نعم ، ولكن ليس هو الدور الرئيسى ؛ وانما ينبع فى معظم الأحيان من ارادة الشعب وحده ، دور الحكومات فى أن تهيىء لمواطنيها وسائل استخدام حرية القــــول والنقد ، عليها ألا تتخذ من الاجراءات ما يجعل النفـــوذ لرأيها وحده دون أن تسمح للآخرين بمعارضتها ومناقشتها؛ ان الحكومات الوطنية حقيقة ، هى التى توفر لمواطنيهـــا كل الأسباب التى تنمى فيهم روح المشـاركة فى تحمل تبعات مواطنيتهم ، وأن يفصحوا عن هذه الروح فى وضوح وقوة ، واجبها أن تدحض كل الأسباب التى تنمى فى المواطنين الرغبة فى العزلة واللامبالاة ؛ وأن تسلك معهم المسلك الذى يملأ أفئدتهم ايمانا بأن الحكومة جـادة فى حملهم على التفكير الحر من أجل حل مشاكلهم ، وجادة فى طلب التعرف الى آرائهم ، وجادة فى احترام هذه الآراء مؤيدة كانت أم معارضة ، لأنها تدرك تماما ما تنطوى عليه المعارضة الأمينة من فرص الازدهار والقوة ، ان قيام المعارضة

الناتجة عن توافر الحرية يؤدى الى قيام رأى عـام مستنير وشجاع ؛ ولا أبالغ اذا قلت ان حاجة الأمة الى رأى عـام مستنير وشجاع أكثر من حاجتها الى حكومة تتوافر فيها هذه الصفات ، ذلك ان الحكومات تذهب وتجيء . أمـا الرأى العام فهو باق كالزمن .. حارس مقيم لا تنتهى نوبة حراسته أبد الدهر ، وكلما كان مستنيرا وشجاعا ؛ فلن تقوم على رأس المجتمع الا الحكومات الأمينة ، القـوية الحرة ، هذه هى الأزمة ، وهذا هو الحل ، ولا حل سواه الحرية ؛ الحرية ، الحرية ...

فهرس

الموضوع	رقم الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٥/٤٩٦٦

